# رسالة المسجد

مجلة محكمة تصدرعن وزارة شؤون الدينية والأوقاف - الجزائر

الدكتور محمد عيسى
وزير الشؤون الدينية والأوقاف
**المدير العام مسؤول النشر**

رئيس التحرير: الدكتور نور الدين محمدي، مدير التوجيه الديني والتعليم القرآني
مستشار المدير العام: السيد حميد رمضة، المفتش العام.
أمانة التحرير: أ . سميرة مخالدي ، أ . بلال سعيدان
إطاران في المديرية الفرعية للتوجيه الديني والنشاط المسجدي

## هيئة التحرير

- أ. د . محمد يعيش،عميد كلية العلوم الإسلامية، جامعة الجزائر.
- أ. د . عمار طالبي، باحث جامعي.
- أ. د . عبد الله بوخلخال، باحث جامعي.
- أ. د . مصطفى باجو، باحث جامعي، غرداية.
- د . موسى إسماعيل، باحث جامعي، جامعة الجزائر.
- أ. محمد شيخ، مفتش مركزي.

# المحتويات


- الافتتاحية/ السيد الوزير — د. محمد عيسى — 3
- الرسالة السياسية
  رسالة فخامة رئيس الجمهورية السيد عبد العزيز بوتفليقة بمناسبة افتتاح الأسبوع الوطني العشرين للقرآن الكريم — 07
- دراسات:
  فقه التوقع: دراسة مقاصدية — د . عبد المجيد خلادي — 13
  موسوعة «تاريخ الجزائر الثقافي» للراحل الدكتور أبي القاسم سعد الله تأصيل لبانوراما الثقافة الجزائرية بأطياف فسيفسائية — أ . مراد وزناجي — 27
  مظاهرات 17 أكتوبر 1961وصمة عار على جبين فرنسا — أ .فوضيل عزوق — 44
  الزكاة في تاريخ الجزائر الاجتماعي والسياسي — أ. محند عزوق — 54
  حكم إلقاء السلام ورده — أ. وهيبة بوداموس — 67
- ملف العدد:
  مكانة عمل أهل المدينة من السنة النبوية — د. محند أوويدير مشنان — 76
  تفاعل الكون والوجود مع ميلاد سيد الأنام — أ. خالد يونسي — 87
  لا تحزن إن الله معنا - قراءة في الهجرة النبوية - — د . بوعلام جوهري — 103
- نشاطات القطاع:
  نتائج الأسبوع الوطني العشرين للقرآن الكريم — 119
- خطبة العدد:
  شأن القرآن في حياة المؤمن — أ. عزالدين بوغلم — 125

## كلمة معالي وزير الشؤون الدينية والأوقاف الدكتور محمد عيسى أثناء إشرافه على مراسم تدشين المسجد القطب « الشيخ العربي التبسي» بعدينة تبسة.

**صباح يوم 8 ربيع الأول 1440هـ الموافق 16 نوفمبر 2018م.**

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله.

أما بعد؛

فهاهو القدر يجمع لنا في هذا اليوم البركات كلّها، بركة الزمان وبركة المكان، أما بركة المكان فلأننا نستشعر ونحن على أرض ولاية تبسة أننا في بوابة الفتح الإسلامي، حيث دخلت من أبواب هذه الولاية جيوش الفتح الإسلامي، يتقدمهم تارة أبو المهاجر دينار، ويتقدمهم تارة أخرى عقبة بن نافع الفهري، وفي جيشهما أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام وتابعوهم رضي الله عنهم أجمعين

إننا في ولاية الفتح الإسلامي الذي أدخل الإسلام إلى أوروبا وعمّر فيها، وإلى إفريقيا وجمع كلمتها.

وهي أرض مباركة لأننا في أرض الجهاد والمجاهدين، وأرض الشهادة والشهداء، إننا في أرض جبل الجُرف الأشمّ، الذي قال عنه عالم هذه المدينة وشاعرها ومؤسس جمعية هذا المسجد الأول، المجاهد محمد الشبوكي رحمة الله عليه:

سَلُوا جَبَلَ الْجُرْفِ عَنْ جَيْشِنَا
يُخَبِّرْكُمُ عَنْ قِوَى جَأْشِنَا
وَيُعْلِمْكُمُ عَنْ مَدَى بَطْشِنَا
بِجَيْشِ الزَّعَانِفَةِ الآثِمِينْ

إننا في أرض الشهادة، وأرض الوطنية، وأرض حب الله ورسوله، وإعمار بيوته.

واجتمع لنا إلى جانب بركة المكان بركةُ الزمان، لأننا مازلنا نتنسّم عبق نوفمبر المجيد، شهر التضحيات، شهر الشهادة، شهر العطاء ومن قدرنا أن

شهر نوفمبر يستضيفه شهر ربيع الأنوار مرة ثانية، وإن يوم الخامس من شهر ربيع الأول سنة 1374هـ هو أول نوفمبر 1954 م؛ وعاد هذا الشهر، شهر ميلاد رسول الله ﷺ ليضمّ إلى صدره شهر نوفمبر، وهل هناك بركة للزمان هي أجلى وأوضح وأكبر في قلوبنا من هذا الاجتماع؟

لقد اجتمع الشهران مُجدّدًا والشعب الجزائري يواصل إعمار وطنه المعطاء، وحب نبيه المصطفى ﷺ بمجرد استقلاله واسترجاع سيادته الوطنية حتى تغنى المنشد: «يامحمد مبروك عليك.. الجزائر رجعت ليك»، متمثلا إهداء الأرض إلى سيدنا محمد ﷺ وحتى أعيدت تسمية المدن التي أسماها الاستعمار باسم القدّيسين والجنرالات، والطغاة، على اسم سيدنا محمد ﷺ.

وهاهو جامع الجزائر الذي تستعد الجزائر لاستلامه، وتنتظر إذْن فخامة رئيس الجمهورية لتدشينه، لتفتحه عنوانا على إسلام الجزائر الوَسَطي المعتدل، وعلى منواله في كل ولاية من ولايات الوطن يقوم جامع قطب رئيسي يحاكي في جامع الجزائر كبرياءه، وصموده، ورسالته، ونحن اليوم نتشرف بأن نلتقي لندشن هذا الجامع، جامع بادرت به النّخبة الخيّرة في هذا المجتمع التبسي المضياف، الذي تمثّلون أنتم أبناء هذا الجيل البقية المتبقية من الذين كانوا في أول جمعية أنشأته.

وعندما استيأس أهل تبسة وظن أهل الشرق الجزائري أن المسجد لن تقوم له قائمة، بعد الصعوبات والمشاكل، والتّأخرات والأخطاء، جاء فخامة رئيس الجمهورية السيد عبد العزيز بوتفليقة، فأسدى أمره السامي بأن يُحمل المسجد على ميزانية الدولة في ميزانية الهضاب.

ومنذ ذلك التاريخ تواكب الولاة الحاضرون معنا والغائبون الذين سيَّروا شؤون هذه الولاية، توالوا في

وضع أسسه، وتشييد خرسانته، ورفع معالمه، وحمل هذه الرسالة كابرهم عن كابر، يتمثلون أمر فخامة الرئيس، حتى وصلنا اليوم إلى ما وصلنا إليه.

التفاف الشعب الجزائري.. التفاف أهل تبسة.. التفاف أعيانها.. أموال المواطنين الذين أنقصوا من قوت أبنائهم لهذا الجامع، أُضيفت اليوم إلى ميزانية الدولة الجزائرية التي ترفع هامتها، وترفع رأسها وهي تحس أنها تبني على أرض تبسة رواسي شامخات تحمي تدين الجزائريين من أن يميد.

هذا الجامع سيكون المنبر الذي يصدح باسم الله عزوجل، ويبث سنة النبي المصطفى عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام، ويذكر أمجاد أسيادنا العلماء الذين تواكبوا وتعاقبوا في هذه البلاد، يبثّون إسلاما وسطيا معتدلا، يتميز بحب الآخر، وبحب النظافة، وبحب العمل، وبحب العدل والمساواة، وبحب التواضع، وبحب الصلاح، وبحب الإصلاح.

ولذلك استحق وبجدارة اسم علم تبسة الشيخ العربي التبسي رحمة الله عليه، الشهيد الغائب الذي مازالت الدولة تبذل جهدها حتى نعرف قبره ومكانه فَنُخَلِّدَ ذكره، ونحمد جهده، ولكن في انتظار ذلك، سيُرفع اسمه ليوضع على هذا الجامع ويخلد تاريخ تبسة، ويخلد تاريخ الوسطية وتاريخ الاعتدال، تاريخ حب الله تعالى وحب رسوله ﷺ، وحب الوطن.

يقع هذا الاحتفال أيها السادة، ونحن مازلنا نتنسّم بركات وآثار وثمرات يانعات لميثاق السلم والمصالحة الوطنية، الذي رفع للجزائر هامتها، وأعلى لها شأنها، لأنها عرفت كيف تتعامل مع أبنائها الذين أخطأوا، وعرفت لقوتها كيف تحسن العفو عنهم والسماح لهم بأن يضعوا أيديهم في أيدي إخوانهم، وأن يبنوا الجزائر معا، وأن يدافعوا عن مجدها وتاريخها.

نعيش هذه الأجواء وقد تصدرت الجزائر مرة أخرى منظمة الأمم المتحدة

بأمر من السيد رئيس الجمهورية عندما طالبت الأمم بأن يكون يوم السادس عشر (16) من شهر مايو من كل سنة، يوما للعيش معا بسلام؛ ولم تتردد دولة من الدول في المصادقة على هذا المقترح الحكيم.

وها نحن اليوم نحتفي بهذا اليوم كل سنة، وكلما احتفلنا ذكر العالم فضل الجزائر، وما ذاك إلا لأنكم أيتها الوجوه المشرقة، أيتها القلوب العامرة بحب الله وحب الوطن، أحسنتم تمثّل الإسلام كما علمنا إياه أسلافنا العلماء، ورفضتم الأفكار التي تقسم صفوفنا وتوزّع كلمتنا وتضعف قوتنا، وأبيتم إلا أن نكون كابن باديس رحمة الله تعالى عليه عندما قال: «أعيش من أجل الإسلام، ومن أجل الجزائر».

مرحى لكم أهل تبسة هذا الجامع، مرحى لكم عيشكم للإسلام، ومرحى لكم عيشكم للجزائر، وتجسيدا لبرنامج فخامة رئيس الجمهورية السيد عبد العزيز بوتفليقة، أتشرَّف بمعية هؤلاء الأعيان من وجهاء المجتمع الرسمي والمدني، والأسرة الثورية المجيدة، وهذه الوجوه النيّرة، بتدشين الجامع الرئيسي القطب الشيخ العربي التبسي رحمة الله عليه باسم السيد الرئيس.

فبالله التوفيق ومنه السداد، المجد والخلود لشهدائنا الأبرار، تحيا الجزائر.

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد.

والسلام عليكم ورحمة لله وبركاته.

# رسالة فخامة رئيس الجمهورية السيد عبد العزيز بوتفليقة بمناسبة افتتاح الأسبوع الوطني العشرين للقرآن الكريم

**المقام بوهران من 25 إلى 27 ربيع الأول 1440هـ**

**الموافق من 03 إلى 05 ديسمبر 2018م.**

**بسم الله الرحمن الرحيم**

**والصلاة والسلام على أشرف المرسلين**

**وعلى آله وصحبه إلى يوم الدين**

**السيّدات الفضليات،**

**السادة الأفاضل،**

مرة أخرى تتداعى أفئدة العلماء والفقهاء والدعاة من كل حدب وصوب ليحطوا الرحال بالجزائر، وليعمروا هذا الفضاء الرباني بالذكر والتأمل وتبادل المعارف والأفكار، وهي سنة درجنا عليها عشرين ربيعا، منذ بدأنا معا في شهر لمولد النبوي الشريف، شهر ربيع الأنوار، وما دأبنا على إحياء أسبوع القرآن الكريم في الجزائر إلا تكريسا للوفاء لنهج سيد الأنام.

إن وفاء أهل القرآن حَمَلَهم على الاستمرار في تخريج أفواج حفظة كتاب الله، لتستقبلهم مدرسة الأسبوع الوطني للقرآن الكريم التي باتت هي المشتلة التي ننتقي منها أحسن أبنائنا تجويد لآيات القرآن الكريم،وأعذبَهم تلاوة لسورهِ، وأنداهم صوتا بترتيله، وما زالت الجزائر تنتقي من هذا النَبْتِ الطيب من يمثلها في المحافل الدولية خيرة بناتها وأبنائها، فلا يرجعون إلا وقد أسروا القلوب، وتبوأوا أولى الرتب، ونالوا أرفع الدرجات، ورفعوا راية الجزائر خفّاقة عالية بين الأمم.

فمرحى لكم أهل القرآن طلابا ومعلمين، وبشرى لهذا الجمع الكريم مشايخ ومريدين، وهنيئا لنا أنصارا ومحبين.

**السيّدات الفضليات،**

**السادة الأفاضل،**

ها نحن نلتقي في هذه الدورة الجديدة وقد خصصتم ملتقاكم العملي لدراسة موضوع من الأهمية بمكان، تحتاج الأمة لأن تتأمل في معانيه، وتتحلى بسماته، وتصطبغ بصبغته، "فالوفاء" باعتباره قيمة قرآنية ومبدأً أخلاقياً.

وحضارياً جديرٌ، حقًّا، بأن يكون موضوع نقاش هذه النخبة من أبناء الجامعات والمعاهد والمساجد والزوايا.

إنّ للوفاء في القرآن الكريم قيمةً عظيمةً، بل الوفاء في القرآن هو "القيمة" التي اختصّها الله من جملة القيم فوصف بها ذاته العلّية فقال سبحانه : ﴿إِنَّ اللهَ لا يُخلِفُ الْمِيعَادَ﴾ {آل عمران9}؛ ثم فاخر بها فقال : ﴿ومن أوفى بعهده من الله﴾ {التوبة:111}.

ولأن الوفاءَ خصلةٌ تزين صاحبَها فقد امتدح الله أبا الأنبياء إبراهيم عليه السلام بصفة الوفاء فقال: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ {النجم 36 - 41}. ووشّح بها إسماعيل عليه السلام في قوله: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾{مريم: 54 - 55}. واعتبرها ملمحَ المؤمنين الصادقين وصفتهم المميزة فقال: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا وعَادوا﴾ {البقرة: 177}.

والوفاء مع الناس قيمة نبيلة، لا يرقى المجتمع إلى درجات النبل إلى بتمثُّلها القيمية الأخلاقية، والتحلي بها، لذلك أَلَحَّت آياتُ القرآنِ المجيدِ عليها، وأمر بها ربُّ العزة في غير ما موضع في القرآن الكريم، مثل قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً» (الإسراء:34)، وقوله سبحانه: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ» (النحل:91)، وقوله عزّ وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ (المائدة:1).

ونفى الإسلام الاكتمال عن إيمان العبد الذي لا وفاء له، ونفى عنه اكتمال دينه، فقال رسول الله ﷺ: **«لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له»**. بل اعتبر الإسلام أنَّ من خالف هذه التعاليم حقيقا بأن يكون غير سليم الطوية، سيئ الخلق، فاسد الباطن، وغير مأمون الجانب، فأي صدق لشخص وصفه الحديث النبوي بأنه: «إِذَ حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ؟».

إنّ أمّة تتخلق بالوفاء هي أمة يحبها الله تعالى لقوله سبحانه: ﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران:76)، وهي أمّة يدخلها الله جنّات النعيم كما في قوله: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ (البقرة:40)، وهي أمّة يضاعف لها الأجر والثواب لقوله عزّ وجل: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الفتح:10).

**السيّدات الفضليات،**

**السادة الأفاضل،**

الوفاء منظومة أخلاقية متكاملة، ترقى إلى مصاف القيم التي جاءت العقول السليمة بترقيتها وحمايتها والحثّ عليها والذود عنها بالقوانين والتربية والتعليم. وتتفاوت قوة الأمم فيمتا بينها بمدى إشعاع هذه القيمة وما يعاضدها منها ومدى أفولها. وتقاس قوة الأمة بمدى وفائها لماضيها وتراثها وتاريخها، والضعف كل الضعف في تنكرها لماضيها، ونفورها من تراثها، ونسيانها تاريخها والاستهتار بتعلُّمه. وهوية الجزائر مستمدّة من ماضيها الأمازيغي التليد، ومن تاريخها العربي العريق، ومن تراثها العربي الإسلامي الأصيل، والوفاء لهذه الثوابت هو وفاء للوطن ذاته.

ولا يصحُّ اليوم أن تتسبب النقاشات الجوفاء، والتشكيك الممنهج، في نكران أبنائنا لتاريخهم، وفي تنكرهم لأسلافهم، وفي انكفائهم عن ثوابت هويتهم. فإنّ الوفاء للتاريخ والأسلاف مع التطلّع إلى آفاق العصر الحديث والتفاعل الجاد مع الواقع هو الذي يعلي للجزائر شأوَها ويرفع شأنها.

إنّ أمّة تاريخها حافل بأسلاف عظام من أمثال ابن معطي الزواوي، وابن أجرّوم، ومرصّعٌ بالفلاسفة والمتكلمين من أمثال أقدم المؤسسين لأدب الرواية أبوليوس، والمفكر مالك بن نبي، ومتسامي بأمثال عالم الفلك ابن قنفذ القسنطيني وعلامة عصره في شتى الفنون والعلوم أحمد التيفاسي والعالم الموسوعي عبد الرحمان بن الحفاف ومن إليهم لا يحقّ لها أن تجفل، ولا يسمح لها بأن تخنع، ولا يمكنها أن تيأس ولا أن تنكفئ عن ماضيها المجيد.

وإنّ أمّة أنجبت أمثال شيخ المفسرين هود بن محكم الهواري

وشيخ القراءات أبي عبد الله التنسي، وشيخ المحدثين ابن نصر الداودي المسيلي البسكري وأمثال الشيخ عبد الكريم المغيلي والشيخ عبد الرحمن الثعالبي والقطب أبي مدين شعيب، ومن لا يحصى عددهم من علماء الدين الإسلامي الذين كانت تُشَدُّ إليهم الرحال من أصقاع الأرض، وتُنسَخ مؤلفاتهم في حواضر العلم، وتَحفل بهم مجالس المناظرة والبحث الرصين، هي أمّة لا يمكنها أن تستبدلّ الذي هو أدنى بالذي هو خير، ولا أن تتخذ ميراث تدينها ظِهْرِيًا لتستورد مذهبيات هي أصلح لمجتمعاتها من مجتمعنا، ولا أن تشكّ في اختيارات أسلافها في العقيدة والفقه والسلوك، وهي اختيارات تقاسمها العالم من حولها، وتوحدت بها المناطق بفضلها، وكانت لآبائنا حصنا حصينا وسدا منيعا ضد كل محاولات شراء العقيدة، أو التشكيك في منظومتنا الشرعية، أو النيل من قيمنا وأخلاقنا. وإني أحذِّر من أن نتسبّب اليوم في انكفاء أبنائنا عن أسلافهم العلماء الذين أسَّسوا في هذا الوطن لمرجعية دينية قويمة، تنهل من الكتاب والسنة، وتقوم على مبدأ الوسطية والاعتدال، وتتجدد بالاجتهاد. لأن ذلك سيزعزع ثقتهم فيما بين أيديهم من الفهوم، وسيجعلهم عرضة لفتك التيارات الفكرية الدخيلة، والمذهبيات المنحرفة،والحركات الاستغلالية التي استعملت الإسلام لتمزيق المجتمعات وإضعاف الأوطان، وبث الكراهية فيها والضغينة والبغضاء.

**السيّدات الفضليات،**

**السادة الأفاضل،**

إنَّ التخلق بالوفاء هو الضمان الحقيقية للصدق في حبّ الوطن والحنين إليه والذود عن حياضه وصونه، كم كان الأصمعي موفقا عندما قال: «إذا أردت أن تعرف وفاء الرجل ووفاء عهده فانظر إلى حنينه إلى أوطانه وتشوقه إلى إخوانه».

في ثورة التحرير المجيدة كان الوفاء للوطن هو الذي حمل خيرة شباب الجزائر على بذل أرواحهم الطاهرة لتحريره فرفع بين أبناء الوطن ذكرهم وسجلت

أسماؤهم في تبت الخالدين، ولا يمكن أن تغيب عن الذاكرة الوطنية أفواج الشهداء الأبرار الذين سقوا بدمائهم الزكية أرض الجزائر، وتمام وفاء هذا الجيل للوطن هو عدم نسيان هذه التضحيات والوفاء لهؤلاء الشهداء بإكمال مسيرتهم في الدفاع عن الجزائر،والذود عن حياضها، وتأكيد وحدتها ،وجمع كلماتها، وتنمية اقتصادها.

وسكن الوفاء للوطن صدور أبناء الجزائر، فعاودوا التضحية، وضاعفوا البذل، وضموا الجهود، ووقفوا كما وقف أسلافهم المجاهدون في انتشال الجزائر ثانية من أتون الفتنة النكراء التي كادت تعصف بميراث الشهداء، وتقوض أسس الدولة الوطنية، وتسفه مبادئ نوفمبر، وتنسف الميراث الحضاري للدولة، لولا لطف الله، وتضحيات المخلصين.

واليوم تنعم الجزائر بثمار ميثاق السلم والمصالحة الوطنية التي جعل منها الدستور مبدأ ثابتا، وقاعدة عمل في تعاملنا مع الوقائع والأحداث، وهذا الميثاق الذي ولد من رحم الأزمة، لا يعني تمزيق صفحة الماضي ولا نسيان المأساة وأسبابها، ولا يعني أننا أصبحنا في منأى عن الوقوع في المأساة ثانية، بل الخطر مازال داهما ما لم نكن أوفياء لأولئك الشهداء الذين ضحوا بأرواحهم من أجل الحفاظ على وحدة الجزائر، وجمع كلمتها، وسد الطريق أمام خطاب الفتنة، والكراهية، والتمييز.

بمناسبة هذا المؤتمر القرآني أرى من الواجب أن أعبر من صميم الفؤاد لهذا الجمع الكريم من الأئمة والمشايخ والعلماء عن امتنان الجزائر وإكبارها لكافة السادة الأئمة الذين لم يخلوا مناصبهم، ولم يبرحوا مساجدهم، ولم يسلموا منابرهم لدعاة الفتنة أيام المأساة الوطنية، فدفعوا الثمن غاليا وأستشهد منهم العشرات في محاريبهم وفوق منابرهم وهم يذودون عن الإسلام الحق الذي علمنا إياه أسلافنا، وجادوا بأرواحهم وهم يحمون الجزائر من أن تعصف بها فتنة تمزق وحدتها، وتشتت صفها، وتضعف قوتها.

وما الوفاء لهذه النخبة المنتقاة إلا باستمرار الدولة في منع خطاب الكراهية، وفي محاصرة محاولات التقسيم الطائفي والمذهبي، وفي السعي إلى إحياء ميراث أسلافنا العلماء الذين كانت خطاباتهم ودروسهم بلسما شافيا للأدواء التي تطول المجتمع وتعوقه عن التقدم والرقي، وكانت مواعظهم وفتاواهم توجيها دينيا وتعبئةً وطنيةً من أجل السعادة في الآخرة والسعادة في الدنيا، وكان سمتهم وسلوكُهم أنموذجَ التضحية الحقّة، والبذل والعطاء بلا حدود من أجل الإسلام ومن أجل الجزائر.

**السيدات الفضليات،**

**السادة الأفاضل،**

أهيبُ بكم وأهيب، من خلالكم، بكل مؤسسات المجتمع، وخصوصا المؤسسات التربوية والتعليمية والثقافية والعلمية والإعلامية، ومؤسسات صناعة الوعي على تنوعها وتعدد تخصصاتها، أن تضطلع بأدوارها المنوطة بها، وتتواشج مع غيرها في خدمة الصالح العام، وأن تمد يدها إلى مؤسسات التربية الروحية القويمة الأصيلة، لتتناغم الأهداف، وتتضاعف الجهود، من أجل بث الفضيلة في المجتمع، ومرافقته ليعود إلى سابق عهده في تمثل القيم النبيلة وترقيتها والعمل بها في معاشه.

إن الوفاء باعتباره قيمة أساسية مضافا إلى القيم النبيلة التي تشكل سلم القيم الوطنية هو جدار الصدّ الأقوى ضد كافة محاولات النيل من هويتنا، ومن وسطيتنا، ومن وحدتنا الدينية والوطنية، وهو السلم الذي أهيب بكم أن تحيوه وأن تذودوا عنه، وأن تعيدوا بثه في ثقافة المجتمع مبدأ وسلوكا.

أهنئكم بجهودكم الحميدة، وبسعيكم المشكور، راجيا من الله العلي القدير، أن يكلأكم بعين عنايته ومحض رعايته، وأن يكتب لكم النجاح والتوفيق والسداد.

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

# فقه التوقع: دراسة مقاصدية

**بقلم: د . عبد المجيد خلادي**
أستاذ محاضر كلية الشريعة والاقتصاد
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة

إذا تحقق عندنا معنى فقه التوقع وكونه يدور وفق موارد الشريعة ومصادرها تأصيلا وتفريعا، وإن لم يكن من حيث هذا الاصطلاح معروفا لدى الفقهاء القدامى ، إلا أن هذا يدفع اعتراض من يقدح في هذا الجوهر، كونه دخيلا في النظر الفقهي والاستعمال في المصطلح الفقهي الأصولي، ولكننا نثبت مقدمة منطقية فنقول:

إن فقه التوقع مبني على أصول وقواعد تطرق إليها الاجتهاد الفقهي والنظر المصلحي والاستنباط المقاصدي، عرف هذا من خلال استقراء النصوص الشرعية المتعلقة بمباحث الأحكام في مختلف القضايا والمسائل الفقهية، وهذا مسلّم فيه ولا يعترض عليه بالنقد والإبطال، إذ دليل الاستقراء يقضي بإثبات هذا الأمر على ما سنذكره من الأمثلة في هذا الشأن .

وللبرهنة على هذه القضية في كون فقه التوقع يقوم على قواعد من مقاصد الشرع إما من جهة التأصيل، وإما من جهة التطبيق والتنزيل: فأما الأول أي من جهة التأصيل:

**فإن التوقع يجري مجرى النظر في الغايات والمآلات:** إذ هو مقصد عظيم اعتبره الشارع الحكيم في جلب المصالح ودرء المفاسد، ويستدل على هذا بدليلين:

**أحدهما:** تشوف الشارع في تحصيل المصلحة والانتفاع بها من قبل

المكلف ابتداء وليس عرضا، بمعنى أن جلب المصالح أولى في الاعتبار لأنها هي الأصل، وهو عند بعض القوم بمعنى التحلية أي التحلي بذلك الوصف حتى إذا ما طرأ عليه ما يشوبه ويعتريه استعمل نقيضه وهو التخلية، وهو معنى اعتبار المصلحة أصالة ودفع المفسدة اقتضاء، أي إذا اقتضى الأمر ذلك.

ونربط هذه البرهنة بفقه التوقع فنلحظ أنه من جهة مراعاة جلب المصلحة وتحقيقها ألصق، ومن جهة اعتبار طرءان المفسدة والاحتياط لها بالدفع أعلق، وهو المعنى الذي يراعي المجتهد فيه توقع نتائج النازلة والقضية الفقهية المجتهد فيها وما يترتب على ذلك من آثار، مع مراعاة الدليل الجزئي المعتبر في النازلة بما يعضد ذلك الدليل الكلي المستدل به عنده.وهذا هو الدليل الثاني في التقسيم .

**بمعنى آخر:** ينظر إلى توقعات الأمور وما عسى أن يترتب عليه بعد ذلك من خير أو شر أو نفع أو ضر، وهذا قد نص عليه الدليل الجزئي في كتاب الله عز وجل في قوله: « فمن خاف من موص جنفا أو إثما فأصلح بينهم فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم»[1].

قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور رحمه الله: « **مَعْنَى خَافَ هُنَا الظَّنُّ وَالتَّوَقُّعُ لِأَنَّ ظَنَّ الْمَكْرُوهِ خَوْفٌ فَأَطْلَقَ الْخَوْفَ عَلَى لَازِمِهِ وَهُوَ الظَّنُّ وَالتَّوَقُّعُ إِشَارَةً إِلَى أَنَّ مَا تَوَقَّعَهُ الْمُتَوَقِّعُ مِنْ قَبِيلِ الْمَكْرُوهِ، وَالْقَرِينَةُ هِيَ أَنَّ الْجَنَفَ وَالْإِثْمَ لَا يُخِيفَانِ أَحَدًا وَلَا سِيَّمَا مَنْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِ الْوَصِيَّةِ وَهُوَ الْمُصْلِحُ بَيْنَ أَهْلِهَا**».[2]

والمعنى هنا ظاهر في اعتبار مراعاة المآل وتوقع الحال بما لا مزيد عليه من المثال.

وهذا النظر هو منزلة من منازل الاجتهاد العقلي في درك غايات الأمور وما عسى أن تؤول إليه بناء على استشراف وتطلع تدفعه الأسباب المحيطة والملابسات التي تكتنف

القضايا والنوازل كما هو الحال في تغير العملات النقدية وتقلبات الأسواق و حركة المصارف والبنوك، فالعقل الفقهي يستنجد بهذه القواعد وهو يدرك أن هذه المصالح ليست على مرتبة واحدة ولا متفقة بل هي متفاوتة ومختلفة فكان لا بد من مراعاة النظر في المآلات واختلاف رتب المصالح والمفاسد وأسبابها .

يقول العلامة بن بيه: « **قاعدة النظر في المآلات إنما هي في حقيقتها قاعدة الموازنة بين مصلحة أولى بالاعتبار أو بين مصلحة ومفسدة، إلا أنها في الغالب تعني أن المصلحة أو المفسدة المرجحة متوقعة**»[3].

## انبناء فقه التوقع على دليل المصلحة

وأصل ابتناء التوقع على دليل المصلحة: هو أن الناظر في أصل النازلة أو المسألة المتوقعة إذا رجح وقوعها في ظن المجتهد أنه يغلب طرف المصلحة في كسب المكلف بحيث يغلب ما تحققه المصلحة من المنافع والمقاصد الحسنة المترتبة عن تلك القضية، ويراعى في جانب المسألة المتوقعة أيضا ما يلحق المكلف من إخلال بالمصلحة بحيث يترتب عن ذلك من المفاسد والآثام، فيغلب جانب دفع المفسدة إذا غلب على ظنه أن هذا قد يقع .فهذا أصل معتبر تجب مراعاته في فقه التوقع بحيث إذا أغفلت مراعاته كانت نتائج تلك الواقعة المتوقعة مضطربة وهذا غير محمود ولا مرغوب فيه.وهذا الذي نفهمه من قول الإمام أبي إسحاق الشاطبي رحمه الله حيث يقول: « **المصالح والمفاسد الراجعة إلى الدنيا إنما تفهم على مقتضى ما غلب: فإذا كان الغالب جهة المصلحة فهي المصلحة المفهومة عرفا، وإذا غلبت الجهة الأخرى فهي المفسدة المفهومة عرفا، ولذلك كان الفعل ذو الوجهين منسوبا إلى الجهة الراجحة، فإن رجحت المصلحة فمطلوب، ويقال فيه إنه مصلحة، وإذا غلبت**

**جهة المفسدة فمهروب عنه، ويقال إنه مفسدة على ما جرت به العادات في مثله.»** [4]

على أن اعتبار المصالح ومراعاة استجلابها أمرا صار مركبا في زماننا وغير منضبط، لتشعب معاملات الناس واتساعها اتساعا اقتضته تطورات البشر في معاشاتهم بما لا يتناهى من الحوادث والنوازل الواقعات أو ما هو متوقع مستقبلا، بتطبيق علوم الاستشراف وإحصاء ما هو كائن وترقب ما سيكون، وهو علم الإحصاء (statistique)وبحوث العمليات (recherche opérationnelle) التي تنتج حصر المفاسد وتضييق نطاق الخسائر المتوقعة في مختلف مناحي الحياة، وإذا كان هذا شأن المصالح على هذا النحو؛ فلا بد من اعتبار ما يتسع لها من الشروط زيادة على التي نص عليها الفقهاء الأقدمون يكون مستندها هذه العلوم والمعارف العصرية التي صارت من قبيل الظن الراجح إن لم تبلغ درجة القطع أو تكاد. ولعل أقرب مثال هنا: هو مسألة اعتماد الحساب الفلكي في رؤية الأهلة باثبات هلال رمضان، وأن هذا الحساب يكون أمارة صالحة للإثبات أو النفي، والمقصد الشرعي المطلوب توحيد المطالع وجمع المسلمين على كلمة سواء في أمر الصيام والفطر وغير ذلك من المقاصد الشرعية المتوخاة، ومعلوم أن الحساب أمر خادم أو هو وسيلة للمقصد الشرعي المطلوب تحققه، فإذا قلنا باعتباره دليلا يرفع الشك ويزيل الخلاف وهو وإن كان عند بعضهم ليس بحجة في الاثبات فلا ينازعون في كونه حجة في النفي ، فلا ضير إن كان اعتماد الفقهاء والخبراء عليه وهو ما لم يحصل إلى يومنا هذا.

ومن القواعد التي تلحق بفقه التوقع في باب المصالح هو ترتيب هذه المصالح وفق درجاتها في الوقوع، فما هو متوقع بالنسبة لآحاد الناس لا يلحق بمرتبة ما هو في حق الجماعة، بمعنى

أن يكون المقصد عام غير مخصوص، وهو الذي عناه علماء المقاصد وعليه ارتكزوا في الفقه، وقد قال الشاطبي رحمه الله في الموافقات:» مقاصد الشارع في بث المصالح في التشريع أن تكون مطلقة عامة، لا تختص بباب دون باب، ولا بمحل دون محل، ولا بمحل وفاق دون محل خلاف»[5].

والمقصد الكلي هو قاعدة قطعية بيقين فلا يمكن أن يتقدم عليه ذلك الجزئي المظنون، ويمكن تخلفه عنه في الحكم لأنه جزء منه، وفي الحكم المتوقع للناظر يحصل هذا التصور من خلال اعتبار مقصديته وأنه كلي أي من قبيل الضروري الذي لا ينعدم[6]، كاعتبارنا المحافظة على سيولة المال والتضييق من مجاريه في باب المعاملات المالية، لئلا يؤدي ذلك إلى تضخمه والحط من قيمته وهذا يؤدي إلى مفاسد كثيرة. والمال مقصد كلي والجزئي منه مثلا هو مراعاة أحوال تقلب أسعاره وتداوله، و يمكن اعتبار خمسة أجزاء من مقاصد المال ذكرها الشيخ الطاهر بن عاشور رحمه الله بقوله: «**مقاصد الشرع في الأموال خمسة أمور: رواجها، ووضوحها، وحفظها، وإثباتها والعدل فيها**»[7].

وأيضا المقصد الضروري يمكن أن يتخلف عنه الحاجي بما لا يؤدي إلى اختلاله، ولكن لا يمكننا إلغاء الضروري لأنه أصل للحاجي، كما لا يمكننا الغاء الحاجي إذا كان أصلا والتحسيني جزء منه أي دونه، فالشروط التي تكون في عقود المعاملات اليوم منها ما يكون باطلا لا تتفق مع جوهر العقد وقد تؤدي إلى بطلان العقد أو إلى فساده، وقيل في قواعد الفقه: «العقد إذا ضامه شرط يخالف أصل موجبه وجب بطلانه»، فمثل هذا وارد، ولكن مع تزاحم المصالح اليوم وترادفها، فهل يمكن إمضاء مثل هذه العقود مع ما فيها من الشروط المنافية لمقتضاها، أم أن اعتبار ذلك من قبيل الحاجي أو التحسيني بحيث

يمكن أن يتسامح فيه، وبالتالي هو من قبيل دائرة المعفوعنه شرعا. وقد اعتبر الشاطبي رحمه الله أن هذه من قبيل المكملات والتتمات فقال رحمه الله: **«كل تكملة فلها من حيث هي تكملة شرط، وهو أن لا يعود اعتبارها على الأصل بالإبطال، وذلك أن كل تكملة يفضي اعتبارها إلى رفض أصلها، فلا يصح اشتراطها عند ذلك»** ثم مثل لها رحمه الله قائلا: « **وكذلك أصل البيع ضروري، ومنع الغرر والجهالة مكمل، فلو اشترط نفي الغرر جملة لا نحسم باب البيع، وكذلك الإجارة ضرورية أو حاجية، واشتراط حضور العوضين في المعاوضات من باب التكميلات»**[8].

وللشيخ الطاهر بن عاشور رحمه الله كلام نفيس في باب التصرفات المالية التي تتعلق بالصحة والبطلان ما نصه:» وعلى رعي مقاصد الشريعة من التصرفات المالية تجري أحكام الصحة والفساد في جميع العقود في التملكات والمكتسبات، فالعقد الصحيح هو الذي استوفى مقاصد الشريعة منه فكان موافقا للمقصود منه في ذاته، والعقد الفاسد هو الذي اختل منه بعض مقاصد الشريعة». ويردف قائلا: « **وقد يقع الاغضاء عن خلل يسير ترجيحا لمصلحة تقرير العقود كالبيوع الفاسدة إذا طرأ عليها بعض المفوتات المقررة في الفقه، وقد كان الأستاذ أبو سعيد بن لب مفتي حضرة غرناطة في القرن الثامن يفتي بتقرير المعاملات التي جرى فيها عرف الناس على وجه غير صحيح في مذهب مالك إذا كان له وجه ولو ضعيفا من أقوال العلماء»**[9].

فانظر إلى هذا التعريف الدقيق للعقود وهو الذي يواكب مسيرة العصر ومتطلباته وتوقع طرءان معاملات مركبة لا تنضبط، فيكون هذا الملحظ من المخارج التي يتوجب معها توسيع نطاق الشروط وما يلحق العقود من الأحوال التي يتشارط عليه أرباب الصناعة والتجارة والاقتصاد اليوم.

بل في تعريف الحاجي ما يدل على

هذا المطلوب، فقد قال الشاطبي في تعريفه : «هو ما يفتقر إليه من حيث التوسعة ورفع الضيق المؤدي في الغالب إلى الحرج والمشقة اللاحقة بفوت المطلوب»[10].

## مراعاة المقصد الأصلي والتبعي في فقه التوقع:

المقصد الأصلي هو المقصد الذي توجه إليه المعنى العام أصالة وهو الذي تدركه الفطرة السليمة والعقول الراجحة، ولا حظ لها فيه: أو هو « **الذي لا حظ فيه للمكلف وهو الضروريات المعتبرة في كل ملة**» [11]، **ونعني بالتبعي: المقصد الذي روعي فيه حظ المكلف**»[12] كاستمتاعه بالمباحات وتناوله ما جبل عليه من الشهوات.

والمقصود بمراعاة مقصد الأصلي والتبعي في فقه التوقع هو التحقق من كون هذا الأمر مقصود أصالة بحيث يكون إثباته يحقق ما به ضرورات الخلق إما من جهة الأصلي بنوعيه: العيني والكفائي[13]، لأنه يحقق مصلحة الفرد والجماعة معا، فهو عيني ليستقيم شأن الفرد وهو كفائي لتنتظم شؤون المجتمع على استقامة ونظام، فالأمر متلازم لا ينفك عن الجهتين، فتوقع زيادة مفاسد التطرف الديني في بلاد المسلمين الذي يؤدي إلى التهارج واختلال أواصر المجتمع وتمزق وحدة الأوطان، مفسدة عظمى، وسبيل الوقاية من هذا كله: هو مراعاة المحافظة على الدين الذي هو ضروري، بل هو أصل الضروريات و آكد الكليات، وعليه وجب أن يكون التدين عيني عند المسلم بمراعاة حقوق الله عز وجل، وأن يكون كفائي عند الجماعة بالتواصي على الخير والتناهي عن الشر، ويكون كفائي مؤكد عند الدولة وأولي الأمر، بما يحقق هذا الأصل من أن يكون مشرّعا ومقنّنا بما يضمن تطبيقه والعمل به. فهو يحقق ضرورات الخلق أصالة إذا اعتبرت وتحققت وزالت موانعه .

وإما من جهة التبعي: فلكون الأمر المتوقع لا ينهض قوة كسابقه، إلا أنه لوحظ فيه حظ المكلف؛ ومعنى حظ المكلف: أي روعي فيه جانب الجبلة والطبع، كحبه للتملك والتكسب، والترفه، وسد أنواع الخلات، والمحافظة على المكتسبات والهياكل المالية ( بالنسبة للدولة)، «فإن الطبع النازع إلى طلب مصلحة الإنسان ودرء مفسدته يستدعي الدخول في هذه الأشياء»[14] وغير ذلك مما هو في هذا المعنى، ثم إن النظر فيه يتوقع بأن يؤدي إلى مصلحة راجحة على وجه التبع له، فإذا توقع الإمام أو الخليفة حصول جائحة في بيت المال أو نقص وعاء خزينة الدولة ، فهل يجوز له أن يرفع نسبة الضريبة على المستثمرين والمضاربين في الأموال بما يسد نقص الخزينة، وهل يجوز له أن يقتطع من أموال المصارف والبنوك وظائف مالية زائدة تدفع هذه الجائحة المتوقعة، وعلى هذا يكون تكييف هذا بنظيره وهو توقع القحط والجذب والفقر، وهو ما نسميه بالتعبير الاقتصادي المعاصر: توقع الأزمات الاقتصادية، فهذا ومثله قد قال فيه الشاطبي في الاعتصام: «الاستقراض في الأزمات إنما يكون حيث يرجى لبيت المال دخل ينتظر أو يرتجى، وأما إذا لم ينتظر شيء وضعفت وجوه الدخل، بحيث لا يغني كبير شيء، فلا بد من جريان حكم التوظيف» [15] و مثله أيضا: موارد الجهاد ورواتب الجند وخصوصا إذا توقع هجوم العدو. قال الجويني في الغياثي: « **الذي أختاره قاطعا به أن الإمام يكلف الأغنياء من بذل فضلات الأموال ما يحصل به الكفاية والغناء**»[16].

## قاعدة مقصد العدل في فقه التوقع.

العدل مقصد عظيم من مقاصد الشرع و به قامت السماوات والأرض وبعثت الرسل من أجله، واتفقت عليه الشرائع والملل، وقد قال الله عز وجل:

« إن الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى»[17]، « لقد ارسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط»[18] وهو متشوف إليه في جميع مناحي التشريع، في العبادات والعادات والمعاملات، ونظم الحكم، والعلاقات الانسانية بين الأمم والشعوب، يقول البيان الإلهي: «وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل»[19] وقوله: « ولا يجرمنكم شنئان قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى»[20]، « أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين»[21].

**والعدل هو المقصد الجامع** الذي رعته الشريعة ومهدت له دقائق التشريع وقوانين الفقه، وقد اعتبر الشيخ بن عاشور السماحة من أعظم أوصاف الشريعة وأكبر مقاصدها، واشتق اسم السماحة من أوصاف العدل، حتى قال: « **السماحة سهولة المعاملة في اعتدال، فهي توسط بين التضييق والتساهل، وهي راجعة إلى معنى الاعتدال والعدل والتوسط**»[22]، و قد ذكر الله في شأن هذه الأمة قوله: «وكذلك جعلناكم أمة وسطا»[23]. وروى البخاري في التفسير عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في معنى الآية: أن الوسط هو العدل: أي بين طرفي الافراط والتفريط[24].

وقد دل الاستقراء على مقصد العدل وأنه يرتفع إلى مرتبة الكليات وأصول المقاصد ، وهو في واقعنا اليوم من أشد المقاصد اعتبارا وامتثالا، فلا يتصور أن ينهض المجتمع المسلم اليوم وقد أهمل هذا الأصل العظيم الذي لا يوجد فرع من فروع الشريعة أو جزء من أجزائها أو كلي من كلياتها إلا وهو منخرط في ذلك، بيد أنه في جانب التطبيق و التنزيل أهمل إعماله وأغفل الاستدلال عليه، فكانت مآلات التنزيل قاصرة في شمول الغايات ومرامي التشريع في هذا المقصد النبيل، ولعلك ترى هذا المقصد بارزا

في فقه التوقع وأنه من الضروري أن يراعى في ذهن المجتهد، بحيث يرصده في فكره واستنباطه وفي درسه الفقهي، وحقيق به أن يوازن بين مراتب العدل في التنزيل، أي في تنزيل القضايا والأقضية المتوقعة، فما يحقق العدل للمجموع ليس كما يحققه لواحد أو طائفة معينة، فلو فرضنا مثلا اعتماد تقسيم ثروة المال على البلد (توزيع المال المقدم من طرف الدولة للولايات) على أي أساس يقوم هذا التوزيع، وما هي المعايير والقيم المعتبرة في ذلك، وهل يحقق العدل بين طبقات المجتمع بحيث يشمل هذا المال جميع مؤسسات الدولة من الدخل الخام للبلد، وهو بلا شك تصرف من الإمام أو الحاكم في المال العام، وتصرفه الحاكم منوط بالمصلحة كما هو مقرر في قواعد الشرع.

وإذا اعتبرنا العدل كلي أعلى وله جزئيات تندرج تحته تصلح أن تكون هي الأخرى كليات متصلة ببابها كما رأى ذلك الشيخ بن بيه في كتابه مقاصد المعاملات، وهو في باب البيوع والمعاملات المالية يقول: « ... **فإن منع الغرر والجهالة أمر مقصود في المعاملات وبخاصة في البيوع من استقراء كثير من أحاديث منهيات البيع...إلا أن المقصد العام هو إقامة العدل بين الناس الذي يمثل أساس التعامل والمعاملة للسلوك وللعقود ولنظام الحياة ونظام الحكم**»[25].

فالذي يقال: إن فقه التوقع يقوم أساسه على رعي العدالة تنظيرا وتنزيلا وتطبيقا، فإذا كان يتوقع في فقه الاقتصاد اليوم زيادة نسبة تضخم الأموال بالنسبة للدولة، والتضخم (inflation) يعتبر من عيوب النقد وهو من مشاكل الاقتصاد الذي يسبب عجزا في الدخل القومي ، كما يتسبب في انخفاض قيمة العملة أو ما يسمى: انخفاض القوة الشرائية للنقود، وتضعف بذلك إحدى أهم وظائف النقود وهي كون النقود مستودعا

للقيمة أو مخزنا لها، فلا بد من أن يحتاط لمثل هذا التوقع اللاحق بما يدرأ أضرار التضخم والحد من آثاره السلبية[26] ، كتقليص نسبة السيولة المالية و تخفيض نسب ضخها في البنوك والمصارف وتحديد الأسعار ، وما إلى ذلك بما يحقق العدل ويكفله في مقاصد المعاملات المالية.

## قاعدة تحقيق المناط في فقه التوقع:

**تحقيق المناط** : التحقيق في اللغة: هو الأمر الثابت المستقر الذي لا يلحقه التبدل والتغير، ومنه قوله تعالى: « إن هذا لهو القصص الحق» .

وفي الاصطلاح: هو نوط الفرع بأصله أي تعليق الحكم بعلة تصلح أن تكون دليلا على الحكم وجودا وعدما .

والتحقق من المناط يكون بإحدى صورتين: **الأولى: المعبر عنها عند الأصوليين : إثبات العلة في آحاد جزئياتها، والثانية: اثبات القاعدة الشرعية في صورها.**

قال الإمام الغزالي في المستصفى: **«اعلم أنا نعني بالعلة في الشرعيات مناط الحكم. أي ما أضاف الشرع الحكم إليه وناطه به ونصبه علامة عليه»**

**وقال في تعريفه الشاطبي : «معناه أن يثبت الحكم بمدركه الشرعي»**

ومثال هذا : الاجتهاد في تعيين الإمام بالاجتهاد مع قدرة الشارع في الإمام الأول على النص، وفي باب الشهداء العدول في قول الله تعالى: « وأشهدوا ذَوَيْ عدل منكم» عرفنا العلة بالنص وهي إثبات العدالة في وصف الشهود، ولكن يفتقر فيه إلى تحديد من تحقق بهذا الوصف، لأن الناس مختلفون في العدالة اختلافا متباينا بين متمكن في قمة العدالة لا ينازع فيه وهذا كأبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وبين من هو أدنى مرتبة كالمسلم العادي ومن هو واقع في الكبائر والمنهيات وبين من هو في مرتبة وسط بين هاتين المنزلتين، وهذا غير منضبط ولا منحصر وهنا يكون

الاجتهاد في تحديد مناط العدالة وهو معنى الاجتهاد بتحقيق المناط كما يقول الشاطبي رحمه الله. هذا تحقيق المناط في مرتبته الأولى وهو إثبات القاعدة الشرعية العامة في آحاد جزئياتها.

وأما المرتبة الثانية : وهو إثبات العلة المتفق عليها في الأصل وتعديتها إلى الفرع، أو هو كما قال القرافي رحمه الله: « **تحقيق المناط هو تحقيق العلة المتفق عليها في الفرع**»[27]، ومثال ذلك: علة الربا في المطعومات عند مالك رحمه الله هي الاقتيات والادخار، وكان الإمام مالك رحمه الله بالحجاز، وكان التين عندهم غير مقتاتٍ مدّخرٍ؛ فلذلك لا يجري فيه الربا. فلمّا ذهب تلاميذ الإمام مالك إلى الأندلس وجدوا أنّ التين يُقتات ويدّخر فأثبتوا العلّة التي هي الاقتيات والادّخار في الفرع الذي هو التين من باب تحقيق المناط28. وعند مالك رحمه الله أن الزكاة لا تجب في الفواكه والخضر، وقد خالف القاضي أبو بكر بن العربي رحمه الله مذهب إمامه ورأى أن الزكاة تجب في هذا الصنف مستدلا بعموم قوله تعالى: «وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفا أكله والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه» فألحق هذا بذاك ثم قال القاضي رحمه الله: «**وأما التعليق بالقوت فدعوى ومعنى ليس له أصل يرجع إليه**»[29].

وفي باب الذهب والفضة اعتبر الفقهاء أن العلة في النقدين هي الثمنية، فيمكن أن نلحق بهما الأوراق النقدية والبورصات والمستندات المالية في معاملاتنا المعاصرة ونعدي الثمنية في النقدين إلى الأوراق النقدية، بحيث تجري فيها الربا وتجب فيها الزكاة وتجري مجرى القيمة في النفقة والإطعام ويحدد فيها المهور وتكون قيما للأشياء والمتلفات وغيرها من الأحكام الشرعية. فهذه العملية التي هي بحث في الواقع من جهة وبحث في التوقع من جهة أخرى هي ما يعبر عنها بتحقيق المناط.

فيكون تحقيق المناط كما يقول العلامة عبد الله بن بية هو: تشخيصُ القضية مِنْ حيثُ الواقع، فإذا كانتْ عَقْداً يكون ذلك بالتعرّف على مكوناته وعناصره وشروطه ، وإذا كان الأمر يتعلّق بذاتٍ معيّنة لإصدار حكم عليها كالنقود الورقية، فإنَّ الباحثَ يجب أن يتعرَّض إلى تاريخ العملات، ووظيفتِها في التداول والتعامل والتبادل، وما اعتراها على مرّ التاريخ من تطور يتعلّق بذات النقد، كمَعْدِنٍ نفيس إلى فلوسٍ، أو يتعلّق بعلاقته بالسلطة وهي جهةُ الإصدار أو بالسّلَع والخدمات، وهذه هي مرحلة التكييف والتوصيف التي يعبر عنها بتحقيق المناط عند الأصوليين؛ لأنه تطبيق قاعدةٍ متفقٍ عليها على واقعٍ معيّنٍ أو في جزئيةٍ من آحادِ صورِها. 30 ويفيدنا كلام الشيخ بن بية أن عملية تحقيق المناط هو نظر في توقع الأحوال ونتائج الأمور بتكييف المسائل المتوقعة وتشخيص الواقع والاجتهاد بالتحقق من علل الأحكام ونتائجها وكونها صالحة لبناء الحكم عليها إما جزئيا أو كليا وكل هذا مندرج في مباحث فقه التوقع المقاصدي.

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

## الهوامش

(1) البقرة: 182

(2) انظر: التحرير والتنوير: 2/ 153

(3) انظر: مقاصد المعاملات ومراصد الواقعات: ص 107.

(4) الموافقات : 2/ 26.

(5) انظر الموافقات: 3/ 171 وما بعدها

(6) نعني بالضروري الذي لا ينعدم، أي: الضرووي الذي وجوده متحقق بذاته لا يحتاج إلى غيره. كالضرورات الخمس المعروفة.

(7) انظر: مقاصد الشريعة : ص: 464

(8) انظر: الموافقات: 2/ 13، 14

(9) مقاصد الشريعة الاسلامية، الطاهر بن عاشور: ص: 478

(10) الموافقات: 2/

(11) الموافقات: 3/ 176

(12) الموافقات: 3/ 178

(13) انظر هنا في مسألة تقسيم الأصلي إلى عيني وكفائي: الموافقات: 2/ 176، 177

(14) هذه عبارة الإمام الشاطبي رحمه الله في الموافقات: 2/ 172 ، وقد فرحت إذ توافق ما كان يردني من الخواطر والأفكار مع ما قد ذكره الشاطبي رحمه الله.

(15) انظر: الاعتصام: أبو اسحاق الشاطبي: ط: دار المعرفة ، بيروت، د.ت، 2/ 122

(16) غياث الأمم في التياث الظلم، ابو المعالي الجويني، تحقيق: مصطفى حلمي و فؤاد عبد المنعم، دار الدعوة، د.ت : ص 193

(17) النحل: 90

(18) الحديد: 25

(19) النساء: 58

(20) المائدة: 08

(21) الممتحنة: 08

(22) مقاصد الشريعة، ص: 268

(23) البقرة: 143

(24) صحيح البخاري: كتاب تفسير القرآن: الحديث: 4487

(25) مقاصد المعاملات، ص: 48 بتصرف

(26) من الآثار الناجمة عن التضخم خسارة الدائن بالنسبة للمدين، فإن الدائن يتضرر من انهيار قيمة العملة التي أصابها التضخم والمدين هو المستفيد من هذه العملية، فهل يحق للدائن مطالبة المدين بجبر الضرر الناتج عن هذه الخسائر ؟ وهذه من المسائل والقضايا الشائكة في الوقت المعاصر، وقد قال ابن بيه في هذه المسألة بعد أن درسها ما نصه: «وأنا أرى الأخذ باعتبار تغير العملات في المآلات والنهايات لا في البدايات، أراه معالجة لأمر واقع لافتراض متوقع».انظر: مقاصد الواقعات ص: 350

(27) أ نظر: تنقيح الفصول 389

(28) انظر عبد الله بن بية : مقال في فقه التوقع موقع:

(29) أحكام القرآن: 2/ 284

(30) انظر: مقاصد المعاملات ومراصد الواقعات ، ابن بيه، ص: 10، 11، وانظر: فقه الواقع والتوقع مقال عبد الله بن بية، موقع

# موسوعة «تاريخ الجزائر الثقافي»
# للراحل الدكتور أبي القاسم سعد الله
# تأصيل لبانوراما الثقافة الجزائرية بأطيافـ فسيفسائية

بقلم: أ. مراد وزناجي[1]
صحفي سابق، وكاتب سيناريو، وباحث في التاريخ

## قصة كتاب نفيس

يتمثل كتاب «تاريخ الجزائر الثقافي» في سلسلة من المجلدات عددها أحد عشر كتابا حاليا. صدرت في أكثر من خمس طبعات أنيقة، منفصلة أجزاؤها، وصادرة تباعا، أولاها كانت عن دار الغرب الإسلامي ببيروت سنة 1981، وجزؤها الأخير بالجزائر عن طريق دارعالم المعرفة (بدعم من وزارة الثقافة سنة 2015). وضمت هذه الموسوعة معلومات كثيرة ومعطيات غزيرة بخصوص الثقافة والمثقفين وإنتاجهم المنوع في الجزائر منذ الفتح الإسلامي سنة 683م وإلى غاية دحر المحتل الفرنسي من الجزائر على أيدي الثوار سنة 1962. أي أن الفترة التي غطاها «**الكتاب الموسوعة**» تفوق العشرة قرون بكثير، وبعدد من الصفحات يفوق الخمسة آلاف وخمس مائة صفحة كاملة. وهنا، يبرز الجهد الهائل والوقت الضخم اللذين بذلهما واستغرقهما الراحل د/ سعد الله من أجل جمع المادة من مختلف البلدان والمناطق والمواضع التي شد الرحال إليها، وتنقيحها وتصحيحها وغربلتها ومقارنتها وترجيحها وصياغتها.

وعرف هذا الكتاب «الكنز» في الأوساط العلمية والإعلامية والثقافية على السواء بتسمية «معلمة تاريخ الجزائر الثقافي»، والتي صدرت بداية

في عشر مجلدات فقط، تتحدد الفترة الزمنية المدروسة فيها ما بين سنة 1500م (عشية الدخول العثماني للجزائر) وسنة 1962 (عقب انتصار الثورة التحريرية الجزائرية على قوات المستعمر الفرنسي). غير أن المجاهد والراحل سعد الله كان يفكر أبعد من ذلك، ولم يكتف بالأجزاء العشرة من معلمته، وقرر العودة بتاريخ الجزائر الثقافي إلى ما قبل سنة 1500م، فكان له ذلك، حيث جدد العهد مع السفر من أجل القيام بأعمال البحث والتنقيب في طيات تلك المرحلة التاريخية الغامضة (قبل اليوم) والمتعلقة بالمرحلة الإسلامية، وتمكن قبل رحيله بأشهر قليلة فقط سنة 2014، من الوصول فيها إلى الفترة الممتدة ما بين الفتح الإسلامي إلى غاية الدخول العثماني.

وقبل ذلك الجزء الأخير (الفترة الإسلامية) كان كتب فيها عن تاريخ الثقافة والمثقفين في الجزائر من بداية الفترة العثمانية إلى غاية الاستقلال الوطني، وهي فترة تقارب الخمسة قرون. وللتدليل على أهمية هذا الكتاب الذي بين أيدينا، يجدر بنا التأكيد أولا على أن الراحل كان سباقا إلى اختيار موضوع البحث الذي لم يفكر فيه أحد من قبل، لا في وطنه ولا من أية دول أخرى.وثانيا، فان مشروعا بهذا الحجم والمستوى والعمق، كان من المفروض أن تتكفل به جهة ما أو مؤسسة رسمية أو هيئة علمية على غرار مراكز البحث والجامعات والوزارات وغيرها. لذلك، علينا الاعتراف له مسبقا بالتميز والتفرد والتضحية، لا لشيء سوى لكون هذا البحث المعمق قد سد فراغا رهيبا في تاريخ الجزائر والدول المجاورة لها، وفي تاريخ الجزائر الثقافي خاصة. وهو الجهد الذي يغنينا عن البحث في هكذا موضوع مجددا، ويوفر علينا الجهد والوقت معا.

## سيرة زاهد اعتذر عن تولي الوزارة والسفارة والإدارة.. لأجل العلم!

- هو مناضل ومؤرخ ومفكر جزائري، ولد بوادي سوف في الجنوب الجزائري سنة 1930، حفظ القران الكريم بالكتاب، ثم تخرج من جامع الزيتونة بتونس، ودار العلوم بالقاهرة، وجامعة مينيسوتا بأمريكا، ودرّس في الجزائر وفي عدد من جامعات العالم. ويعد الراحل أول باحث جزائري يحرز درجة الدكتوراه في التاريخ سنة 1965، بفضل الشهادة التي عاد بها من الولايات المتحدة الأمريكية سنة 1967 إلى الجزائر، حينما قرر العودة إلى الديار والاستقرار بها نهائيا، رافضا حمل الجنسية الأمريكية التي عرضت عليه يومها[2].

-أتقن الرجل لغات عالمية كثيرة هي: الانجليزية والفرنسية والألمانية والفارسية، علاوة عن العربية. جمع الرجل بين مجالات عديدة في ميدان العلوم الإنسانية وغيرها من الفنون: فهو الشاعر والقاص والمؤرخ والناقد والمترجم والرحالة والصحفي والمحقق واللغوي، الذي أغنى مكتبات العالم بعلمه الوافر. أي أنه لم يكن مؤرخا وفقط، مثلما يظلمه بعضنا، عن حسن نية أحيانا، بل كان عالما موسوعيا بأتم معنى الكلمة، وتمكن من تأليف عشرات الكتب والمجلدات والمؤلفات والمقالات المنوعة.

-عايش الدكتور سعد الله،وعن كثب، عددا هاما من الشخصيات العلمية والثقافية والتاريخية، الوطنية والعالمية. فأثر فيها وتأثر بها. كما تعرف على شخصيات أخرى صنعت لنفسها اسما في تخصص ومجال نشاط كل منها. ومعلوم أن الدكتور سعد الله كان قريبا من الإصلاحي الزاهد والشهيد الشيخ العربي التبسي[3] الذي اختطف سنة 1957 بالعاصمة من قبل قوات العدو الفرنسي، دون أن نسمع عنه خبرا منذ ذلك التاريخ، وهو أحد

الأعضاء المؤسسين لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين. وكان سعد الله ملازما للعلامة الفصيح الشيخ محمد البشير الإبراهيمي[4]، الذي أطلق عليه لقب «سعد السعود». كما تعرف إلى الأمير عبد الكريم الخطابي، المغربي، والعربي الثائر. وتعرف إلى المجاهد والوزير الأول بلعيد عبد السلام. ولازم الشاعر الفذ محمد العيد آل خليفة،. ورافق الأستاذ والمناضل المرحوم عبد الحميد مهري. ولازم عددا من الأساتذة الجامعيين والباحثين الجزائريين الذين كان يتذكرهم في كل مرة ويذكرهم بخير، ومنهم: د/ عبد الله الركيبي، د/ أبو العيد دودو، د/ يحي بوعزيز، والقائمة طويلة.

- كان الراحل عضوا مراسلا «بمجمع اللغة العربية بالقاهرة» لسنوات عديدة، وكان صاحب نشاط وقوة اقتراح،وذا دور فعال في تلك الهيئة التي مثّل الجزائر فيها رفقة زميله د/ عمار الطالبي.

-يعتبر الراحل من الجزائريين القلائل الذين جمعوا بين الكفاءة العلمية والإنتاج المعرفي والجهاد في سبيل تحرير الوطن من الاستعمار الفرنسي. وهو المنضمّ إلى جبهة التحرير الوطني بالقاهرة سنة 1955، بينما كان ما يزال طالبا بإحدى جامعاتها، وناضل دفاعا عن القضية الوطنية في إطار الحركة الطلابية الجزائرية بكل من تونس ومصر وأمريكا. وكان كتب شعرا ثوريا حتى قبل اندلاع الثورة الجزائرية. كما ساهم في رد العدوان الثلاثي على الشقيقة مصرسنة 1956. كما شارك بقلمه شاعرا وناقدا في جريدة «البصائر» لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وكتب فيها «رسالة القاهرة».

-حضر الراحل حدثا تاريخيا هاما عندما كانت الجزائر تعتبر لدى الفرنسيين بمثابة «مستعمرة»،يتمثل في الإعلان الرسمي عن تأسيس الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية

بالقاهرة، شهر سبتمبر من سنة 1958، وهي الهيئة التي احتك ببعض قادتها ووزرائها. كما أنه عمل بإحدى مصالحها لوقت طويل.

-لا يوجد باحث جزائري آخر، من غير الراحل، كان نشاطه حثيثا ومتنوعا وبأماكن عدة بنفس الآن. حيث حاضر وناقش وأشرف على رسائل جامعية، ودرّس في عدد من الجامعات الكبرى في العالم، بأمريكا والأردن وغيرهما كثير،وتشرف بعضوية الكثير من المجالس والهيئات العلمية، وسبقه كبير في مجالات البحث، وقلم سيال مساير للعصر والراهن باقتدار، وصاحب فلسفة (مدرسة) في تدوين التاريخ.

-عرضت على الراحل مناصب المسؤولية مرارا، لكنه اعتذر عن توليها بلطف ولين، ليس تكبرا، فالعالم كله يشهد له بالتواضع وحسن الخلق وحب الوطن وأبناء الوطن والعروبة والإسلام والإنسانية جمعاء.لقد فعل الرجل ذلك في سبيل التضحية من أجل العلم، وعدم الاشتغال عنه بغيره، أي أن زهده في المناصب كان من زهده في الدنيا. لذلك، وبموجب حبه للبحث والتنقيب، وجدناه يعتذر عن تولي «الإدارة والوزارة والسفارة»، وهو الوصف الذي حق لنا أن نلحقه به.

- توفي رحمة الله عليه يوم 14/12/2013 بالجزائر العاصمة، بعدما اشتد عليه المرض. وتفاعل مع رحيله العالم كله وليس الجزائر فقط. وحضرت جنازته التي أوصى بأن تكون شعبية، جموع كبيرة جدا، ودفن بمسقط رأسه في بلدية قمار بالوادي حسب وصيته التي نفذت بحذافيرها من طرف ذويه.

## تسمية أحبها هو.. «موسوعة الجزائر الثقافية»

«ولو طلب إلي أن اختار تسمية جديدة لهذا الكتاب لاخترت له اسم (الموسوعة الثقافية الجزائرية)، ذلك أن أجزاءه الجديدة تضفي عليه هذا

الطابع عن جدارة. ومع ذلك فاني سأبقى على العنوان الأصلي، فهو الذي عرف به في معظم مكتبات العالم». بهذه العبارات يتحدث د/ سعد الله عن الكتاب. ويضيف أن الأخير هو ثمرة جهود دامت حوالي ربع قرن. وكتب عنه الشيخ البشير الإبراهيمي رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة 1960 بكونه مشغوف إلى حد الافتتان بالبحث عن الآثار الأدبية والعلمية لعلماء الجزائر في جميع العصور. وان هدفه من البحث هو إنتاج عمل يكشف عن مساهمة الجزائر في الثقافة العربية الإسلامية والإنسانية عبر العصور. ذلك أن المستعمرين الفرنسيين قد بثوا طيلة احتلالهم للجزائر بأنه لم يكن لأهلها ماض سياسي ولا ثقافي، وزاد إهمال الدارسين العرب والمسلمين لتاريخ الجزائر من حرصي على البحث والتنقيب. فالجزائر قد ظلمها أعداؤها وأشقاؤها على السواء، «وظلم ذوي القربى أشد مضاضة على المرء».

ويشير الراحل في موضع أخر إلى أن النهضة الوطنية حين بدأت في الجزائر كان مثقفوها غالبا من خريجي المدارس الفرنسية الذين لم يكن يربطهم بماضي الجزائر سوى الدين وبعض التقاليد والذكريات الشعبية. وقد كان هدفهم الأساسي هو التحرر، ولم يكن الكشف عن دور الجزائر الثقافي جزءا من برنامجهم. بل إن حركة ابن باديس التي ركزت على الجانب الثقافي بقدر من النهضة الوطنية، لم تعتن في مدارسها بتاريخ العرب والإسلام عموما. ومرد ذلك بدون شك إلى ندرة المصادر وقلة الباحثين المتخصصين في هذا الموضوع.. (باستثناء جهود المرحومين الشيخ مبارك الميلي والشيخ أحمد توفيق المدني).

## انتقاد وافتخار..بالثقافة الجزائرية في العهد العثماني

وبما أن الكتاب يتطرق عبر أجزاء عديدة إلى فترة الوجود العثماني بالجزائر، فإن سعد الله تحدث عن

حكام هذه الفترة وقال إنهم كانوا يوصفون من طرف الكتاب الجزائريين بالحكام الأتراك والأعاجم والعلاج لكونهم - الحكام - كانوا من خارج الجزائر وكان اغلبهم لا يتكلم إلا التركية وكانوا من أصول مختلفة (تركية، يونانية، ألبانية، ايطالية، الخ). ثم يعدد الراحل مزايا الحكم العثماني في الجزائر وحسناته كما يورد مساوئه وسلبياته في مجالات الحكم والسياسة والثقافة والدين وشؤون المجتمع، مؤكدا على فكرة الجمود الثقافي التي يقول إنها كانت سائدة خلال تلك المرحلة.ومع ذلك فهو يجد أن المخطط البياني للثقافة في الجزائر كان يسير في حالة اطراد وصعود. فبعد معاناة الثقافة في القرن السادس عشر الميلادي، والذي شهد هجرة العلماء الواسعة وكثرة الحروب، أخذت الحياة تدب فيها في القرن الموالي بفضل استقرار الأوضاع السياسية وازدهار الحياة الاقتصادية وتوارد العلماء المسلمين على الجزائر ووفرة الكتب. ثم شهد القرن الموالي حركة قوية في صفوف العلماء والعناية بالتعليم وكثرة التآليف، بفضل مساهمة بعض البايات أمثال صالح باي والحاج محمد الكبير. وظهر علماء كبار مثل ابن سحنون وأبو راس وابن العنابي الذين اهتموا بالعالم الخارجي للجزائر.

مشيرا إلى سيطرة عدد من الظواهر على الحياة الثقافية في العهد العثماني، من أهمها انتشار التصوف والدروشة وشيوع الشروح والحواشي على أعمال المتقدمين والثقافة الموسوعية والحفظ وتقديس أعمال السابقين. غير أنه يتدارك بالاعتراف بأن الثقافة في العهد العثماني كانت عربية إسلامية في صميمها، المشتركة والشائعة عندئذ في العالم الإسلامي، فمناهج التعليم كانت واحدة وحدود الأفكار واحدة، ومعاهد العلم التي ارتادها علماء الجزائر متشابهة والطرق الصوفية هي هي سواء أخذوها في المغرب الأقصى أو

في العراق.. وأن على الجزائري التباهي بكونه قد أسهم بهذا الإنتاج في حركة المد التاريخي والحضاري للأمة العربية الإسلامية.

ويتطرق الكتاب في جزئه الأول (1500 - 1830) إلى مسائل عديدة ومتشعبة تخص حياة المثقفين وإنتاجهم في الفترة المذكورة بالجزائر، مثل الأدب واللغة والتصوف وعلم الكلام والمنطق والعلوم وعلوم الدين ودور المدن والحياة الدينية والفنية والمساجد والأوقاف والزوايا والرباطات والمدارس والمعاهد العليا والمكتبات وسياسة التعليم ووسائله ومكانة العلماء ووظائفهم وتنافسهم وميزاتهم وعلاقتهم بالحكام وهجرتهم وتعليم المرأة والمواد المدروسة وأجور المعلمين وغيرها. كما يشير إلى كم هائل من أسماء العلماء الذين لم نكن نسمع سوى القليل عنهم، ممن طرقوا أبواب المواضيع والقضايا سالفة الذكر، من أمثال: النقاوسي والحوضي والثعالبي وابن زكري والقسنطيني وأبو عصيدة والملياني وعمر الوزان وسعيد قدورة وسعيد المقري وعبد الكريم الفكون وغيرهم كثير.

ويواصل في الجزء الثاني (1500 - 1830) نفس المهمة، بعرض واف لعدد من العلوم، الشرعية مثلا، والتي يقول إنها كانت تمتاز في الغالب بالتقليد أكثر من التجديد، وبرز ذلك لدى بعض العلماء في التفسير والقراءات وعلم الحديث والإثبات والإجازات والفقه والنوازل والفتاوى وعلم الكلام والتصوف والمواعظ والردود والمنطق وغيرها. ثم يعرج بالحديث عن علوم اللغة والنثر الفني كالخطابة وأنواع الشعر والوصف والرسائل والعقود والألغاز والتاريخ والتراجم والرحلات والفنون والعلوم، كالحساب والفلك والطب والجراحة والصيدلة والموسيقى والغناء والعمارة والخط والرسم. ويسرد أعمال وسير عدد من الأسماء البارزة في ذلك كله على غرار

عبد الرزاق بن حمادوش والورتلاني وابن علي وأحمد بن عماروأحمد البوني وغيرهم كثير. علما وأن المجلدين الأول والثاني طبعا معا سنة 1981 و1985.

## الجزائريون في مواجهة المصالح الثقافية الفرنسية

ويواصل في الجزء الثالث على نفس المنوال من السرد والتحليل، ولكن خلال فترة أخرى جديدة ومختلفة، وهي فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر ولكن قبل اندلاع الثورة التحريرية (1830 - 1954)، وهي المرحلة التي خصص لها الرجل بقية الكتب إلى غاية الجزء الثامن.

وغطى الجزء الثالث هذا مختلف العلوم والفنون والآداب والتعليم في المدارس القرآنية والمساجد، وأعيان المدرسين بالعاصمة مثل القديري والارناؤوط وبوقندورة والعمَالي وابن الحفاف وكمال بن الخوجة وابن الشيخ وابن سماية وابن زكري، والتعليم بغرب البلاد وشرقها وجنوبها، ورواده مثل الشيخ الونيسي وبوجمعة وابن مرزوق. وافرد حيزا للتعليم المزدوج والمعاهد والتعليم المهني وتعليم المرأة والفنون التقليدية والتعليم الفرنسي. ويقر الراحل سعد الله بكونه درس في هذا الجزء مساهمات الفرنسيين والجزائريين معا. ذلك أن دراسات الفرنسيين للفن واللغة والآثار والطرق الصوفية وغيرها، داخلة في صميم هذا الموضوع الثقافي. وهي أعمال المستشرقين والمترجمين والمؤرخين والفنانين الفرنسيين التي كانت مستوحاة من تراث الجزائر محاولين توجيهها نحو وجهة تخدم المصالح الفرنسية. وهنا يكمن الفرق الشاسع بين الفرنسيين والعثمانيين. فهؤلاء لم يكتبوا عن الثقافة الجزائرية بل تركوا الأمر لأهل البلاد أنفسهم، بينما اهتم الفرنسيون بشؤون الثقافة وزحزحوا عنها علماء وأدباء البلاد. وغطى الكتاب أيضا دور المهاجرين الجزائريين في المشرق والمغرب في مجالات الصحافة

والسياسة والدين والأدب. فعلى الرغم من أن مساهمة الجزائريين كانت كبيرة جدا لدى العرب إلا أن بلادهم الأصلية خسرتهم. وكتب الراحل مقدمة الكتاب سنة 1996، وأهداه لأمه (هالي عبدية) التي توفيت ولم يرها بسبب بعد المسافة أثناء وجوده بأمريكا في تلك الفترة بسبب هذا العمل، ولم تقبَل الوالدة الكتاب، كما اعتادت أن تفعل، ما حز في نفسه كثيرا.

أما الجزء الرابع، فجعله للحديث المفصل عن الطرق الصوفية، وأهم المصطلحات والتعاريف المستعملة فيها وعنها، وقام بالتأريخ لحوالي ستة وعشرين طريقة صوفية في الجزائر، متحدثا عن علاقتها بالمقاومة الشعبية وبالسياسة، وعن محاولة توظيفها وتدجينها من طرف المستعمر الفرنسي. وقدم إحصائيات وأرقام تخصها وقتذاك. فيما تحدث أيضا عن السلكين الديني والقضائي، ورجال الدين وعلاقتهم بالسياسة، وتصنيف المساجد، وتجربة المجالس القضائية، ومسألة تدوين الفقه الإسلامي، والعرائض التي كان يكتبها الشيخ المكي ابن باديس (جد الشيخ عبد الحميد بن باديس)، ومقدما لنماذج من القضاة مثل ابن المختار وابن الحاج موسى والزهاروبريهمات والأشرف وغيرهم.

وجاء الجزء الخامس ثريا بمادة منوعة، مخصصا للمعالم الإسلامية على رأسها المساجد ومصيرها والموجود منها بالعاصمة ووهران وقسنطينة ومنطقة الوسط، والأضرحة والزوايا وأموال الوقف والمساعدات الخيرية وجمعيات الإغاثة، ثم المنشآت والمراكز الثقافية كالصحافة الفرنسية والعربية وروادها، كعمر بن قدور وعمر راسم وأبو اليقظان، ثم الإذاعة والسينما والمطابع والجمعيات والنوادي الثقافية، ومصير المخطوطات، والمكتبة الوطنية والمكتبة الجامعية والمكتبات العسكرية والمكتبات الخاصة، والنساخة والمكتبات البلدية

والمدرسية، والمسرح والموسيقى بأنواعها وآلاتها وأراء عدد من المستشرقين فيها، وأهم روادها مثل محي الدين باش تارزي ومحمد بن علي سفنجة ورشيد القسنطيني وغيرهم. وختم الكتاب بالحديث عن هجرة الجزائريين نحو المشرق والمغرب وبعض الدول الأخرى، وعن ثلة من أعيان الجزائر هناك، وعن عائلة الأمير عبد القادر بالمشرق وزيارة الشيخ محمد عبده، وإحصاء لبعض الجمعيات والجرائد والأحداث الثقافية.

ووردت في الجزء السادس تفاصيل وافية حول عوالم الاستشراق ومراحله وإنتاج رواده بالجزائر وحياتهم وكذالك بالنسبة للمستعربين، والهيئات العلمية ولجنة الاكتشاف العلمي ولجنة الاحتفال بمائوية احتلال الجزائر (1930)، والمعاهد الجامعية والجمعيات المتخصصة ومشاركة المثقفين الجزائريين في البعثات العلمية، ودور الكنيسة ونشاطها التنصيري ورواده مثل دوبوش وبافي ولافيجري ودي فوكو، ونشاة الأسقفية. إضافة إلى مجال الترجمة وظهور النخبة الاندماجية والمترجمون الجزائريون ومترجمو الحملة الفرنسية على الجزائر والترجمة إلى العربية، وفكرة معهد العالم العربي وأسر الأطفال وحملهم إلى فرنسا، ونماذج من المثقفين الاندماجيين والدعاة الأوائل للتعليم باللغة الفرنسية. ولم ينس البروفيسور سعد الله الإدلاء بدلوه بخصوص الموقف من الاحتلال ومختلف أراء منظَري الاستعمار، وسياسات فرنسا الجهنمية على المستوى الاجتماعي والثقافي مثل «**فرّق تسد**». ومعاداة العرب التي يقابلها معاداة البربر والتآمر على منطقة زواواة بالقبائل والاندماج والتجنس والنخبة. وتكلم عن الجزائر في الكتابات الفرنسية، وعن اليهودية والصهيونية والماسونية والمثالية والاشتراكية والإسلام ووحدة الأديان.

## هل تملك الثورة الجزائرية إيديولوجية؟

وضم الجزء السابع معلومات أخرى بخصوص العلوم الدينية والتصوف، وزوَد القارئ بمعلومات جديدة عن مؤلفين وباحثين وأدباء ومفكرين آخرين. والجميل فيه هو تطرقه لبعض العلوم التجريبية كالطب والتقاليد وممارسات الطب في عدد من المناطق الجزائرية مثل الاوراس، يضاف إليها ما أسماه هو بالطب السحري والخرافي، وبعض المؤلفات الخاصة بالطب والصحة ورواد هذا المجال على غرار بلعربي ومرسلي وابن التهامي. وتحدث عن مدرستي الطب والعلوم، كالفلك والحساب وعلوم أخرى كثيرة. فيما خصص الفصل الأخير من الجزء لمجالات التاريخ، بما فيه التاريخ المحلي، لعدد من المناطق بالوطن، وكذا التراجم والرحلات والمذكرات وأهم العلماء فيها.

وجاء الجزء الثامن، الأخير من السلسلة، مخصصا لفترة ما قبل الثورة (1830 - 1954). وجعله الراحل د/ سعد الله لمجالات اللغة والنثر الأدبي والشعر والفنون. ووردت في تفاصيل الكتاب حالة الأدب والثقافة غداة الاستقلال والتعامل مع اللغة والدراسات البربرية التي ظهرت وقتها نتيجة لما يعرف بالسياسة الفرنسية البربرية، وتقسيم السكان إلى عرب وبربر حتى تعلو كلمة الفرنسيين وحدهم، فيما اهتم العدو الفرنسي بالعربية ولهجاتها لحاجته إلى فهم الشعب الجزائري والاتصال به والتعامل معه. علاوة على الدراسات النحوية والمعاجم (عند بلقاسم بن سديرة وعمر بوليفة)، وكذا النثر الأدبي والمقالة الصحفية، ودراسة الأسلوب عند عاشور الخنقي والإمام الإبراهيمي، والرسائل والتقاريظ والخطابة (لدى محمد الصالح بن مهنة وأبي يعلى الزواوي)، والروايات

والقصص والمسرحيات المقامات وأدب العرائض والنداءات والنصائح، ودراسة الأدب والتحقيق لدى محمد بن أبي شنب والأدب باللغة الفرنسية، وتطور حركة الشعر بأنواعه مثل نموذج مبارك جلواح، والفنون التقليدية (الشعبية)، ونظرة الفنانين الفرنسيين للجزائر والشرق عامة، ودراسة أنموذج»فيلا عبد اللطيف» الشهيرة بالعاصمة، ومعارض الفنون الإسلامية والآثار الدينية والقصور والمباني الحضرية والمتاحف، ودراسة شخصية وإنتاج الفنان نصر الدين (إيتيان) ديني، والنقش والرسم والخطاطة وعمر رسم وأخوه محمد وآخرون، وتحليل مضمون المؤلفات التي درست المسرح ورواد التمثيل والموسيقى والغناء، وتحليل لإنتاج الموسيقار محمد إقربوشن الجزائري الأمازيغي.

## تفضيل الكتابة عن التاريخ الثقافي للثورة بدل سياستها ودبلوماسيتها ومعاركها

معروف عن الراحل سعد الله عدم خوضه في القضايا السياسية والدبلوماسية والعسكرية المتعلقة بمرحلة الثورة التحريرية الجزائرية (1954 - 1962)، لاعتباره أن الوقت لم يحن بعد لذلك، مفضلا الاهتمام بمراحل تاريخية سابقة بالجزائر، ربما لعدم توفر الوثيقة التاريخية ولقرب تلك المرحلة منا. لكن الجانب الثقافي من تلك الحقبة جلبه إليه فاهتم به وكتب عنه فأبدع أيما إبداع، بدليل الكم الهائل من المعلومات والشروحات الوافية الواردة في الجزء التاسع من الكتاب قيد الدراسة، بالرغم من اعتراف الرجل بصعوبة الكتابة عن الثورة، حتى في جانبها الثقافي. ونجد أن الكاتب خصص له أحد عشر فصلا كاملا،وقعت في 683 صفحة. ومن دون لف ولا دوران، يتهم د/ سعد الله بعض الأشخاص بالابتعاد عن المبادئ والثوابت التي انبنت عليها الثورة في

البداية (الانتماء الحضاري للعروبة والإسلام واللغة العربية)، خاصة بعد سنة 1956، وهو ما تفاقم بعد الاستقلال - حسبه -، إذ يرى أن ذلك الالتزام قد حل محله لغة التشكيك والمساءلة والعلمانية المفرطة التي وصلت في نهاية المطاف إلى تبني الاشتراكية العلمية.. ولأسباب يحددها في الكتاب.

ويتحدث صاحب الموسوعة الخالدة عن الحالة الاقتصادية والإدارية والسياسية والاجتماعية، وعن جمعية العلماء المسلمين وبعثاتها، والكشافة الإسلامية والجمعيات والشؤون الإسلامية والحالة الثقافية والتعليم واللغة العربية عشية الثورة. ثم نجده يستفيض في الحديث عن الثقافة في نصوص الثورة من خلال بيان الفاتح من نوفمبر ومؤتمر الصومام والحكومة المؤقتة وتقرير لجنة صبيح ونصوص الطلبة، ثم يتساءل عما إذا كان للثورة إيديولوجيتها الخاصة؟ مجيبا على لسان الرئيس الثاني للحكومة المؤقتة، بن يوسف بن خدة، الذي يعتقد أن الإجابة هي بنعم، وان للثورة مبادئ وفلسفة وأفكار انبثقت عنها، لكنه يفرق بين مبادئ الشعب ومبادئ القادة. وتحدث عن الثقافة في الإعلام الرسمي وبرنامج طرابلس. ثم تطرق إلى مسالة الهوية والأدباء بالفرنسية، حيث تكلم عن النظام التربوي بالجزائر والإسلام وتعليم التاريخ، وأبعاد الهوية الثقافية، وعن رأي مالك بن نبي في كل من عبان رمضان وفرانس فانون، وعن اضطهاد المثقفين، وعن القومية العربية من خلال جريدة المجاهد، وأدباء اللغة الفرنسية (ديب وياسين ومعمري وفرعون وجبار).

ثم تناول الإعلام أثناء الثورة من صحافة وإذاعة وتلفزيون وإعلام فرنسي ومكاتب جبهة التحرير الوطني الإعلامية والفريق الوطني لكرة القدم وأعمال الوفد الخارجي والمسؤول السياسي. وقدم إحصائيات منوعة حول التعليم والتنظيمات الطلابية

ونشاطها وإضرابها، بالجزائر والخارج. ولم يغفل الحديث عن المسرح والغناء والسينما والموسيقى والرسم والخطاطة والمتاحف، وعن أنواع النثر بما في ذلك المقالة ومسألة الفصحى والعامية والفرنسية والخطابة والترجمة والقصة والرواية. ثم عن الشعر وأنواعه ونماذج من الشعراء. وعن الدراسات التاريخية والفلسفية والرحلات والطب والصحة العامة. ثم عن متفرقات أخرى مثل الحج والسياسة والشباب وزيارة الوفود ومعهد فاروق وفرقة يوسف وهبي، ومواقف المثقفين الفرنسيين من الثورة، والمناضلة جميلة بوحيرد في السينما والأدب، والثورة في الشعر العربي والأدب العربي في أعين النقاد العرب ومسألة اللغة العربية، خاتما الكتاب بجملة وثائق ورسائل.

وكعادة الدكتور أبو القاسم سعد الله في كتب سابقة وأخرى لاحقة، فإنه خصص جزءا كاملا (العاشر) للفهارس العامة، مثل فهرس المؤسسات والمراكز الدينية والفنية والثقافية الواردة في السلسلة، وفهارس الأماكن والأشخاص والشعوب والقبائل والأقوام والأحزاب والجمعيات والمؤتمرات والكتب والدوريات والمجلات، حتى يسهل على القارئ مهمة البحث والتنقيب في طيات أجزاء الكتاب.

## كتاب عن الفترة الإسلامية.. أمنية الشيخ تتحقق أخيرا

ليصدر آخر جزء من سلسلة «تاريخ الجزائر الثقافي» بعد فترة وجيزة من رحيله عن هذه الدنيا، يوم السبت 14/12/2013، وهو الجزء الذي تحدث فيه عن الثقافة والمثقفين وإنتاجهم بالجزائر منذ الفتح الإسلامي حتى عشية الدخول العثماني للجزائر (1500م)، وهي أبعد فترة غطتها السلسلة. كما أنه الجزء الذي تعب «صاحبنا» كثيرا من أجل إيجاد جهة تتكفل به أثناء فترة البحث والتنقيب عن وثائق مادته النادرة عبر عدد من

دول العالم، من مكتبات ومراكز بحث وجامعات وزوايا وغيرها.ويمكنني أن أشهد على ذلك ما دمت كنت رفيقه في تلك المرحلة الأخيرة من حياته، وكنا نسعى، بالتنقل والمراسلة، لدى عدد من الوزارات والهيئات لأجل التكفل بالمشروع، ولأهمية هذا الجزء، وكثرة مادته، فإننا سنؤجل الحديث عنه إلى مناسبة لاحقة حتى نفيه حقه كاملا دون نقصان. علما وأن الكتاب المذكور صدر عن وزارة الثقافة الجزائرية مؤخرا فقط عن طريق الناشر «عالم المعرفة» بالجزائر، في إطار ما سمي»بتكملة الأعمال الكاملة» للدكتور سعد الله. وكان ذلك في حلة بهية تسر القراء، ومضمون غزير يغري الباحثين والطلبة والمؤرخين. وكم كان الراحل يخشى أن تنطفئ الشمعة ولا يكتب هذا الجزء.. مثلما كان يصرح لي دوما.وها هي الأمنية تتحقق، ويلقى الشيخ ربه مرتاح البال والضمير معا، تاركا الثقافة الجزائرية الحالية تسبح في بحر متلاطم الأمواج، باحثة عن طوق للنجاة، يسير بها إلى مرفئ آمن، ويجيبها عن أسئلة الراهن جميعها، من نحن؟ من هو المثقف؟ ماذا نبتغي من الثقافة؟ ما علاقة الثقافة بالسياسة وبالاقتصاد؟ هل الثقافة ضرورية لحفظ كرامة المرء؟.. في ظل عولمة قاتلة لا مكان فيها للضعفاء ومجهولي النسب، و«شتاء عربي» يكاد يأتي على كل أخضر ويابس، وعلى ما تبقى لبعضنا من آثار وأطلال كانت تنشر فينا حنينا يبعث على العيش والافتخار. غير أن المحفَز والمبشَر بمستقبل واعد هو تلك الكتب التي تطبع والأجيال التي تقرأ، ودور النشر التي تتكاثر في اللحظة مرتين.فهل فعلا سيقرأ الناس «موسوعة تاريخ الجزائر الثقافي»، عساهم يروون ظمأهم بصفحات من نور؟ليبقى الأكيد أن الجزائر خسرت بموت الراحل د/ سعد الله عالما موسوعيا لا يجود به الزمن مرتين.. يرحمه الله.

## الهوامش:

1 - مراد وزناجي من مواليد سنة 1971 بالعاصمة الجزائر، صحفي سابق، وكاتب سيناريو، وباحث في التاريخ. صدرت له عدة كتب في مجال التأليف والترجمة، حول المجتمع والسينما وتاريخ الجزائر، وعمل مستشارا تاريخيا في عدد من الأعمال السمعية البصرية، آخرها فيلم ومسلسل عبد الحميد بن باديس . يعد من تلاميذ الدكتور أبو القاسم سعد الله، حيث عاش قريبا منه، وألف حوله كتابين اثنين هما: «حديث صريح مع د/ أبو القاسم سعد الله في الفكر والثقافة واللغة والتاريخ»، صادر في ثلاث طبعات، وكتاب «مفهوم التاريخ عند د/ أبو القاسم سعد الله». كما درس حياة وإنتاج الراحل في مقالات علمية ومحاضرات وطنية ودولية عديدة.

2 - في تلك السنة، عانى الراحل كثيرا بعد المشاكل التي لقيها بخصوص الاعتراف بشهادته - الدكتوراه-.علاوة على صعوبات أخرى واجهته من لدن بعض الأشخاص في الجامعة، من المنتمين إلى تيار معاكس، يقف ضد مسالة التعريب، يضاف إلى ذلك مشاكل أخرى واجهته مع قضية السكن.

3 - معروف عن الشيخ العربي التبسي رحمه الله كونه « شهيدًا لا قبر له».

4 - هو الذي خلف الشيخ عبد الحميد بن باديس على رأس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بعد وفاة هذا الأخير سنة 1941، وكان له الدور الفاعل في التعريف بالقضية الجزائرية قبل وأثناء الثورة التحريرية.

# مظاهرات 17 أكتوبر 1961
## وصمة عار على جبين فرنسا

بقلم: أ/فوضيل عزوق
باحث جامعي

لا يزال تاريخ الجزائر الحديث لا سيما الفترة الاستعمارية منه ميدانا خصبا يحتاج إلى دراسات أعمق للتعرف أكثر على الفصول المظلمة من التاريخ المجيد لثورتنا المظفرة. هذا وقد سعى الأستعمار الفرنسي منذ أن وطئت أقدامه أرض الجزائر سنة 1830 الى تشويه الشخصية الجزائرية ومحوها حضاريا وماديا بكل ما أوتي من قوة، باتباعه سياية التجهيل وقتل الذاكرة التارخية والحضارية والسياسة والقضاء على كل ما ينبه ويحرك الوعي الوطني وبالتالي كل مايؤدي الى مقاومة جديدة.

لذلك، فقد شهدت الفترة الاستعمارية هذه محطات عدة شهدت وقوع أحداث عديدة تستوجب اليوم الوقوف بإجلال لتسليط الضوء على جزء هام من الثورة التحريرية التي يكاد يكون مجهولا لدى عامة الناس، لأخذ العبر واستنباط الدروس بل وأكثر من ذلك لتهذيب النفوس وغرس الروح الوطنية وما أحوجنا لذلك لا سيما في هذه الفترة. كما أن الدارس لتاريخ الجزائر الاستعماري يكتشف بأن كل أيام الفترة الاستعمارية طيلة 132 سنة جلها محطات إذ لم يمر على الجزائريين ولم يشهد هناك تقتيل وتعذيب ومصادرة أملاك... الخ وغيرها من المظاهر الاستعمارية التي تخص المستدمر الفرنسي.

غير أنه وطيلة الفترة الاستعمارية وقعت أحداث هامة كانت حصيلتها ثقيلة جدا إذ في اليوم الواحد قتل

وعذب المئات بل الآلاف. ولعل أهم هذه المحطات تلك المتعلقة بمشاركة المهاجرين الجزائريين بفرنسا في الثورة الكبرى عبر القيام بعمليات فدائية وتوجيه ضربات موجعة للعدو الفرنسي في عقر داره على غرار أحداث 17 أكتوبر 1961 التي تعد أهم وأسوأ الأحداث في تاريخ الجزائر الثورة الجزائرية وهي أقل ما يمكن وصفها بأنها مجزرة ارتكبت في حق متظاهرين جزائريين سلميين.

هذا وتجدر الاشارة إلى أن المرحلة الأخيرة من الفترة الاستعمارية ببلوغ الهمجية الفرنسية ذروتها في معاملتها لِأبناء الجالية الجزائرية بفرنسا، فالكثير منهم زج بهم في غياهب السجون والمحتشدات لا لشيئ إلا لكونهم ساندوا ثورة إخوانهم في الجزائر، وكان الهدف من ذلك هو الضغط على الجزائرين وزرع الخوف في نفوسم من أجل تفادي أي محاولة لدعم الثورة.

غير أن ذلك لم يزد سوى عزيمة وقوة الجالية الجزائرية بفرنسا فقد حاولت أن تعكس هذا المنطق بالضغط على السلطات الفرنسية حتى تعدل عن تدعيم تواجدها العسكري بالجزائر، بالتالي التخفيف عن الضغط العسكري الفرنسي المتزايد. لذلك فقد رأت فدرالية جهة التحرير الوطني أنه من الضروري القيام بمسيرة سلمية تعبيراً عن الوضعية المزرية التي آلت إليها الجالية الجزائرية من جراء المعاملات اللاإنسانية بسبب الظلم والاضطهاد اليومي الذي كانت تتعرض له لاسيما بعد صدور قرار حضر التجوال للجالية الجزائرية بتاريخ 05 أكتوبر 1961، أين طالب مجلس الوزراء الفرنسي من وزير الداخلية إعلان للرأي العام بيانا يتضمن «منع العمال الجزائرين من التجول ليلا بين الساعة الثامنة والنصف ليلا والساعة الخامسة النصف صباحا خاصة في شوارع باريس و ضواحيها».

يهدف هذا القرار طبعا إلى تشديد الخناق على الوطنيين الجزائريين وشل

نشاطهم دون سواهم مما يعني أنه حظر عنصري بامتياز. خاصة الذين كانو يلتقون في المقاهي والمطاعم بعد خروجهم من العمل، حيث يقومون بدفع إشتراكاتهم ومناقشة الوضع في الجزائر مع قادة فدرالية جهة التحرير بفرنسا. كما يرمي هذا القرار إلى محاولة تكسير النشاط التعبوي لصالح جهة التحرير الوطني داخل فرنسا، و لأن هذا النشاط يدعم الكفاح المسلح بالجزائر وميزانية الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية صدر هذا القرار لفرض حصار مشدد على العاملين الجزائريين بفرنسا خاصة وأن الجزائريين المهاجرين كانوا يناضلون طوعا أو كرها في صفوف جهة التحرير الوطني، هذا إضافة إلى الممارسات القمعية الفرنسية.

أمام هذه الأوضاع رأت فدرالية جهة التحرير الوطني بأنه من الضروري تفكيك القيود من خلال السعي لإفشال هذا القرار وهو ما أسمته : «بنداء العصيان»، وهو النداء الذي سرعان ما استجاب له الآلاف من المهاجرين من كل الفئات الاجتماعية والثقافية (أطفال، رجال، نساء، شيوخ، طلبة، مثقفون ...الخ) بل حتى من بعض الفرنسيين المحبين للسلام.

قررت فدرالية جهة التحرير الوطني أن تكون نقطة انطلاق التظاهرة السلمية من العاصمة الفرنسية باريس يوم 17 أكتوبر 1961 ابتداء من الساعة الثامنة مساء وهو ما يعد أكبر تحد للسلطات الفرنسية لا سيما في هذا الظرف العصيب. وهو ما يبين أن قوة إيمان وعزيمة الجزائريين أضحت لا تقهر. كانت هذه المظاهرات بمثابة كرة الثلج التي كلما ازداد دورانها كلما كبرت أكثر، حيث اتسع لهيبها لتشمل جميع المناطق التي يتواجد بها الجزائريون وحيث السيطرة الفعلية للفدرالية خاصة منها «ساحة الأوبيرا» التي كانت من بين المناطق الاستراتيجية بباريس حيث جعلت منها الفدرالية نقطة انطلاق هذه المظاهرات.

ولمواجهة هذه المظاهرات السلمية قامت الشرطة الفرنسية بسد كل المنافذ المؤدية إلى الساحة، كما قامت بتعزيز شوارعها الرئيسية بأكثر من 7 آلاف شرطي، إلى جانب الفرق المتخصصة «سي، أر، أس» إضافة إلى فرق الحركى لمواجهة السيول البشرية التي تفوق أكثر من ستين ألفا (ومن المصادر التي تحدثت عن ثمانين ألفا) متظاهر على شكل صفوف هادئة.

وما أن بدأت الشعارات والصيحات تدوى في شوارع باريس وضواحيها حتى واجهتها الشرطة الفرنسية بكل قسوة رغم سلميتها، مستعملة كل أنواع الردع بما في ذلك الذخيرة الحية. حيث تواصلت المظاهرات والغضب الجزائري على مدار ثلاث أيام كاملة، حيث خصص اليوم الأول لعامة المغتربين ذوي الأصول الجزائرية الذين خرجوا رفقة زوجاتهم وأولادهم والثاني للتجار وذلك بغلق محلاتهم، أما اليوم الثالث فقد خصص لخروج النساء والتظاهر أمام مختلف الهيئات والمؤسسات والسجون الفرنسية.

ولم تجد السلطات الفرنسية من وسيلة لمجابهة هذا الحشد الجماهيري سوى «القمع الدموي الرهيب» نظرا للاستعمال العشوائي للأسلحة النارية وهو ما أدى إلى قتل العديد من الجزائريين بأمر من السفاح رئيس الشرطة الفرنسية «موريس بابون» الذي لم يتوقف قمعه عند هذا الحد بل أمر برمي الجزائريين بالآلاف وهو مكبلين أحياء ومن دون تمييز في نهر «السين»، فكان اليوم الأسود والدامي.

في هذا الشأن، فقد أشار المؤرخ محمد قورصو أن موريس بابون قام عشية اندلاع مظاهرات 17 أكتوبر 1961 بزيارة كل محافظات الشرطة مم أجل تحريض عناصرها على تصفية الجزائريين بعد أن أباح قتلهم، لذلك اعتبره من أكبر مجرمي الحرب الذين عرفتهم الجزائر وكان أول من أمر بفتح المحتشدات التي كان يمارس

فيها التعذيب على الجزائريين بمختلف أشكاله، مؤكدا بأن أحداث 17 أكتوبر 1961 تبقى راسخة في الكفاح المسلح للشعب الجزائري مشيرا إلى أنها شكلت أيضا منعطفا حاسما في مسار المفاوضات الجزائرية الفرنسية.

كم كانت تكلفة هذه المظاهرات غالية رغم سلميتها. «إنه اليوم الأسود» كما وصفه الكاتب الفرنسي جون لوك إنودي. وهذا بالنظر إلى الحصيلة الثقيلة التي أفرزتها هذه الأحداث، إذ راح ضحيتها أكثر من 300 قتيلاً، 7000 جريحا، 800 شخصا تم رميه في نهر السين و35 ألف سجين... الخ. خاصة وأن السلطات الاستعمارية عمدت إلى محاكمة غير عادلة للآلاف المعتقلين بل محاكمة جائرة حتى أن الكثير منهم استشهد داخل مراكز الاعتقال لعدم تقديم الاسعافات اللازمة لهم. ولم تتوقف انتهاكات السلطات الفرنسية عند هذا الحد، بل تواصلت بمطاردة الطلبة المتواجدين في فرنسا وأوقفت نشاطاتهم في مختلف الجمعيات الطلابية ووسعت حملتها العدائية لتشمل العائلات الجزائرية المقيمة بفرنسا حيث قامت الشرطة السرية في مداهمة المهاجرين محاولة منها كشف المنظمة السرية وتفكيكها، وبالتالي ضرب جبهة التحرير في الصميم.

لم تكن مجزرة 17 أكتوبر 1961 العملية الوحيدة التي قامت بها فدرالية جبهة التحرير الوطني بل عمدت إلى مراحل عديدة بدءا بتأسيس خلايا للفدائيين الجزائريين في فرنسا تطبيقا لفكرة نقل الحرب إلى أرض العدو لتوعية الرأي العام الفرنسي بما يجري في الجزائر من جرائم على الشعب، ثم تشكيل هياكل مهامها القيام بأعمال تخريبية في قلب فرنسا، لتتطور الفكرة إلى تطبيق سياسة شن الحرب وخلق حالة اللاأمن في الأراضي الفرنسية للضغط على حكومة باريس حتى تبقي على قواتها في فرنسا لمواجهة الوضع الحربي فوق ترابها وبالتالي التخفيف

عن جيش جبهة التحرير الوطني في الجزائر، أو بالأحرى خلق جبهة قتال ثانية.

كما سبق لفدرالية جبهة التحرير بفرنسا أن واجهت أخطر مرحلة في مسيرتها بين عامي 1957 و1958، أين كثفت من نشاطاتها بتنفيذ عدة عمليات تخريبية على مستوى كل التراب الفرنسي واغتيال عدة شخصيات عسكرية فرنسية إضافة إلى تصفية شخصيات أخرى من الحركى ولمواجهة ذلك الوضع سعت السلطات الفرنسية إلى تضييق الخناق على الفدرالية والتدقيق في الهويات وانتهت بإصدار القانون الجائر منع حضر التجوال للجزائريين.

إن دراستنا لهذه المحطة التاريخية الهامة 17 أكتوبر 1961، دفعتنا إلى التساءل عن شخصية «موريس بابون» الذي أمر باضطهاد الجزائريين بهذه الوحشية والهمجية حيث تبين لنا أن هذا السفاح، رغم الكفاءة التي يتميز بها وهو صاحب الشهادات العليا في الحقوق والقانون العام والاقتصاد السياسي، كان معروف بعنصريته وبارتكابه لممارسات نازية، إذ منح الضوء الأخضر لتضييق الخناق على إطارات الفدرالية والمنخرطين فيها، وقمع المتعاطفين مع جبهة التحرير الوطني بشتى الطرق. ولتحقيق هذا الغرض تم تشكيل قوة إضافية من الشرطة تتمثل مهمتها في مراقبة وتوقيف الجزائريين المشتبه فيهم.

أختير من طرف الماريشال ديغول بتعيينه على رأس محافظة شرطة باريس سنة 1958، بحكم الخبرة التي اكتسبها بعدما تقلد مناصب عدة. كما عاصر حكومات مختلفة من بينها حكومة فيشي إبان الاحتلال الألماني لفرنسا حيث كان من أكبر ضباطها، كما عين واليا على منطقة قسنطينة وأذاق سكانها الويلات بقبضته الحديدية مستفيدا من خدمات الحركى ومساعدتهم له بجمع

المعلومات عن الثوار. وبحكم خبرته هذه اختاره ديغول رئيسا لمحافظة الشرطة بباريس ومقاطعة السين ليقوم «بتطهير» العاصمة الفرنسية وضواحيها من «إرهاب» اتحادية جبهة التحرير الوطني ومُنح في ذلك كل الصلاحيات.

غير أن المفارقة العجيبة والمؤلمة، وأمام كل ما اقترفه السفاح موريس بابون في المهاجرين السلميين العزل فقد منحه الماريشال ديغول وسام الشرف نظير ما قام به من تقتيل وتعذيب وتنكيل ضد الجزائريين وهو ما يبين مدى الحقد الفرنسي تجاه الجزائريين. في حين فإن الحكومة الفرنسية أدانت بابون لجرائمه في حق اليهود وصدر في حقه حكم بالسجن عشر سنوات نافذة وكان ذلك سنة 1997 ولم يشفعه مرضه وتقدمه في السن من الوقوف أمام العدالة، وقابله تجاهل تام لجرائمه في حق الجزائريين رغم ثبوتها بالأدلة القطعية.

إذن فلا يمكن أن ننتظر من مثل هذا السفاح أن يجابه الأبرياء في مثل هذه المظاهرات رغم سلميتها، إلا بما قام به. ومما يدل على سلمية هذه المظاهرات هو ما صدر عن فدرالية جبهة التحرير الوطني في فرنسامن تعليمات صارمة وصريحة للمهاجرين الجزائريين المشاركين في المظاهرات بالمحافظة على سلمية المظاهرات، من خلال التزام الهدوء وتفادي تعطيل الحركة في الشوارع، أو الاخلال بالنظام العام وعدم استعمال الأسلحة مهما كان شكلها، وكانت شعارات المتظاهرين محددة منها «الجزائر المستقلة»، «تحيا الجزائر» والحكم لجبهة التحرير الوطني»، كما تم رفع العلم الجزائري في المسيرة من طرف المناضل «بن عربي الحبيب» الذي توفي في اليوم الثاني من المظاهرات.

ومن أجل تبييض صورتها أمام العالم عمدت الحكومة الفرنسية إلى طمس حقائق هذه الجرائم النكراء،

حيث لم تسمح بإنشاء لجنة تحقيق في هذه الأحداث وفرضت الصمت حولها من أجل إدخالها في طي النسيان، وذلك من خلال فرض الرقابة المنظمة على أغلب المقالات الصحفية التي تتحدث عن تلك الأحداث الدامية، ولا تزال السلطات الفرنسية إلى اليوم ترفض الاعتراف بهذه المجازر.

في هذا الشأن، وبعد مرور 57 سنة على القمع الذي مارسته الشرطة الفرنسية بحق المتظاهرين الجزائريين السلميين أضحت المطالبة باعتراف فرنسا بمثل هذه الجرائم «جرائم ضد الانسانية» يزداد يوما بعد يوم حتى من بعض الفرنسيين المحبين للسلام لا سيما الكتاب والمثقفين منهم الذين ينظمون بعض النشاطات من أجل إحياء الذكرى والاعتراف بهذه المجازر، كون الاستعمار جزء لا يتجزأ من تاريخ فرنسا الذين أسسوا جمعية تسمى «تجمع 17 أكتوبر» وهي تدعو اليوم السلطة السياسية بالاعتراف بهذه الجرائم التي صرحت خلال الاحتفالات الماضية بأن أحداث 17 أكتوبر 1961 «جريمة ضد الانسانية وعمل وحشي وجزء من هذا الماضي الذي يجب أن نواجهه بتقديم الاعتذار لمن ارتكبنا بحقهم هذه الممارسات» مضيفة «الديمقراطية لا تبنى على الأكاذيب والتعتيم، بعد مرور نصف قرن، حان الوقت أن تعترف الدولة الفرنسية بجريمة الدولة هذه، وأن تعترف الدولة الفرنسية بمسؤوليتها في السجن التعسفي لجزائريين في معتقلات خلال حرب الجزائر».

غير أن الدولة الفرنسية الرسمية ورغم مرور أكثر من نصف قرن على وقوع هذه الأحداث وغيرها لا تزال تتعنت وتسلك سياسة الهروب إلى الأمام حتى أن البعض شبه تعامل الادارة الفرنسية مع فترة استعمارها للجزائر عموما وأحداث 17 أكتوبر 1961 خصوصا بالانفصام خاصة وأن السلطات الفرنسية لجأت إلى

العنف والتصدي بوحشية، إذ عمدت إلى التعتيم وحتى إنكار هذه الجرائم حيث كثيرا ما قامت محافظة الشرطة في باريس بتكذيب ما حدث من خلال نسب ما حدث من الانتهاكات إلتي ارتكبتها إلى بعض الجماعات المسلحة التابعة لحزب جبهة التحرير الوطني.

إن مظاهرات 17 أكتوبر 1961 ستبقى إحدى المحطات البارزة في تاريخ الثورة الجزائرية، نظرا لما أفرزته من آثار بادية للعيان إذ بينت مدى الوحدة واللحمة والروح الوطنية التي كان يتميز بها الجزائريون في ديار الغربة تمكنوا من وضع حد للتعسف والعنصرية الفرنسية وكذلك ثباتهم الباسل أمام التنكيل والتعذيب الذي سلط عليهم خارج الوطن وإيمانا بعدالة القضية الجزائرية. إذ خرج الجزائريون وهم واثقون بحقهم في الكرامة ومشبعون بحبهم للوطن.

كما تعبر مظاهرات 17 أكتوبر 1961 عن مدى تآزر الجزائريين علاوة على أنها عززت النظال السياسي والعسكري وأكدت على مدى تماسك وتلاحم الشعب الجزائري مع ثورته داخل الوطن وخارجه وأثبتت للعالم أجمع مدى قدرة جبهة التحرير الوطني آنذاك على نقل الثورة إلى عقر دار المستعمر نفسه في الوقت الذي كانت فرنسا تعتقد أن أواصر المهاجرين قد انقطعت مع الوطن الأم. كما كان لهذه المظاهرات الأثر البالغ في كسب حلفاء ومساندون جدد للثورة الجزائرية سياسيا وعسكريا.

إن هذه الأحداث المساوية لم ولن تمحى من أذهان وذاكرة الشعب الجزائري بل ستظل راسخة للأبد شاهدة على مدة همجية ووحشية المستدمر الفرنسي فهي بذلك فصل من فصول التاريخ الفرنسي الأسود هذا من جهة ومن جهة أخرى ستظل هذه الأحداث شاهدة على مدى بسالة وشجاعة وضراوة الشعب الجزائري الذي لم تقهره لا الدَّبابات ولا الذخيرة

الحية ولا القوانين الجائرة. وما أحداث 17 أكتوبر 1961 إلا خير دليل على ذلك وهي محطة من محطات أخرى وما أكثرها يتعين اليوم على جيل الاستقلال التعرف على مثل هذه الفصول المظلمة من تاريخ الجزائر الحديث.

## مصادرومراجع الموضوع:


### بالعربية:

1 -سعدي بزيان: جرائم موريس بابون ضد المهاجرين الجزائريين في 17 أكتوبر 1961 ط 2، 2009، دارثالة، الجزائر.

2-أحمد صاري: دور المهاجرين الجزائريين في الثورة التحريرية. مجلة المصادر العدد 01، أوت 1999، ص 237.

3- سعد بزيان: جرائم فرنسا 17 أكتوبر 1961 بباريس من خلال المصادر الجزائرية الفرنسية، مجلة المصادر العدد 06، مارس 2002 ص ص 395-408.

4-أحمد مريوش: مساهمة المهاجرين الجزائريين في مظاهرات 17 أكتوبر 1961 وأثاره على دعم الثورة التحريرية. مجلة المصادر العدد 21 2010، ص ص 263 – 283.

5 - ك. قدور: مظاهرات 17 أكتوبر 1961 من مسيرات سلمية إلى جرائم ضد الانسانية. مجلة المجاهد، العدد 04 جانفي 2016، ص ص 78 – 81.

### بالفرنسية:

1 -Ali Haroune : la 7ème wilaya, la guerre du FLNen France, 1954 – 1962. Editions rahma 1992.

# الزكاة في تاريخ الجزائر الاجتماعي والسياسي

**بقلم: أ. محند عزوق**
مدير الدراسات

## الفصل الأول : الزكاة في تاريخ الجزائر الاجتماعي والسياسي

### تمهيد:

يركز هذا البحث على رصد الخلفية السوسيولوجية للزكاة، لاكتشاف الآليات التي ظلت تحكم هذه الممارسة في تاريخ الجزائر الاجتماعي والسياسي، وتأثير ذلك على فكر وسلوك المزكين، وهذا لا يتأتى إلا بالوقوف على الطريقة التي كانت تعتمدها الدول في جبايتها للزكاة، وعلاقة جباة الزكاة بالمزكين أو الفاعلين الاجتماعيين.

حيث أن العمال الذين يقومون بجمع الزكاة بقدر ما يسهلون على الناس أداءهم لهذه الفريضة ، إذ يحددون الأموال التي تجب فيها الزكاة ويقدرون نسبتها ، ويذكرون المكلفين بها بحلول حولها ، بقدر ما يزهدون الناس في أدائها إذا ساءت معاملتهم للمزكين واعتدوا على أموالهم بغير حق ، وينقطع حبل الثقة بين المزكي وبين من يقوم بجبايتها ، وقد مر على تاريخ الجزائر عهد كان الملوك والأمراء يفرضون الزكاة جزافا.

كما يحاول هذا البحث الوقوف على تنظيم الزكاة وجبايتها من طرف الدولة، ومتى تم التخلي عن هذا الدور الذي يعتبره البعض من الواجبات الأساسية للدولة .

ومن أهم ما يتم بحثه أيضا في هذا الجانب السوسيوتاريخي مسألة وعاء الزكاة، لأن هذا الموضوع سوف يعطينا تفسيرا للأسباب التي تقف وراء اختيار بعض المزكين (حسب عينتنا المبحوثة)

لأداء الزكاة بأنفسهم، وعدم تقديمها لمؤسسة الزكاة، التي ترعاها الدولة تحت وصاية وزارة الشؤون الدينية والأوقاف .

لقد ظل وعلى مر التاريخ أمر جباية الزكاة يقتصر على الأموال الظاهرة، دون الباطنة، منذ أن سن ذلك سيدنا عثمان رضي الله عنه وأيده على ذلك جمهور الصحابة رضوان لله عليهم أجمعين، فقد رأى سيدنا عثمان بعد أن امتلأت الخزينة بأموال الخراج والجزية والعشور والصدقات، أن يجمع الزكاة من الأموال الظاهرة فحسب، وأما الأموال الباطنة فيدع أمرها إلى أربابها يؤدون زكاتها بأنفسهم، وفسر البعض ما قام به سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه بأنه توكيل لأرباب الأموال ليقوموا بإخراجها بأنفسهم لما رأى أن المصلحة تقتضي ذلك، ولهذا قال رضي الله عنه: "من كان عليه دين فليؤده، وليزك ما بقي من ماله.

وهذا الذي عملت به كافة الدول التي تعاقبت على حكم الجزائر، حيث أنها اقتصرت على جباية الزكاة من الأموال الظاهرة دون الباطنة، وبقاء أفراد المجتمع يؤدون الزكاة بهذه الطريق لقرون طويلة، شكل ثقافة يصعب تجاوزها، وغدت من قبيل العادات والتقاليد، ولذلك فليس بمستغرب أن وجدنا نسبة (30 %) من أفراد العينة المبحوثة يبررون رغبتهم في دفع الزكاة بأنفسهم بعامل العادات والتقاليد. وفيما يأتي عرض لفصل الزكاة في تاريخ الجزائر:

## أولا: الزكاة في العهد الأموي

تبدو النُصوص التَاريخيَة شحيحة في هذه الفترة من التَاريخ فيما تعلَق بشأن الزَكاة في شمال إفريقيا عموما والجزائر خصوصا، غير أنَ الفترة التي تولَى فيها عمر بن عبد العزيز الخلافة تؤكِد اهتمامه بجمع الزَكاة والصدقات من أهالي شمال إفريقيا وفق ما تقتضيه الشَريعة الإسلامية ومن ذلك

ما جاء عن يحي بن سعيد قال: "بعثني عمر بن عبد العزيز على صدقات إفريقيا فأقضيتها، بطلب فقراء نعطيها لهم ، فلم نجد فقيرا، ولم نجد من يأخذها مني ، قد أغنى عمر بن عبد العزيز النَاس". وبعد أن ارتفعت طلبات الجباية، وذلك إما بسب دعم خزينة دمشق وبغداد بأموال الجباية، أو بسب العمال الذين ما كانوا يتورعون عن أخذ الأموال بحق أو بغير حق، قام الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز عند توليته الخلافة بإصلاحات عميقة، ومن أولى هذه الإصلاحات: رفع الظلم عن أموال الرعية وتحصيل الزكاة بطريقة شرعية، فوضع شروطا لتحصيل الزكاة ونقلها إلى بيت، وكتب إلى عماله: «ألا يوجه بما حصل من ذلك – الزكاة- إلا مع عشرة عدول من أهل القيروان يصحبون المال حتى يصل إليه».

ولكن بعد نهاية الحكم المثالي لعمر بن عبد العزيز بتاريخ (صفر 99 – رجب 101 الموافق سبتمبر 717 فبراير 720) ارتفعت طلبات الجباية في إفريقيا وغيرها.

## ثانيا: الزكاة في عهد الدولة الرستمية

منذ مبايعة عبد الرحمن بن رستم بالإمامة سنة 160 هـ/ 776 م ، كأول حاكم ينجح في تأسيس دولة إسلامية جزائرية مستقلة في إقليم تيهرت وامتدادها إلى بلاد المغرب من الجهات الأربع ، أقام نظامها على أساس الكتاب والسنة ، تحت إدارة وإشراف رئيسها الأعلى الملقب بالإمام ، كانت الزكاة من الوظائف التي تقوم الدولة بتحصيلها وإعادة توزيعها على المستحقين لها، كما أن الوضع الاقتصادي لهذه الدولة كان مريحا جدا، وكانت مملكة تيهرت إحدى محطات العالم الاقتصادية الكبرى فكانت الحبوب والأزهار تزرع بأرض الجزائروالأسواق ملأى بمختلف

البضائع وفي هذا يقول البكري رحمه الله: «فيها جميع الثمار وسفرجلها ليس له نظير ، ويقول المقدسي رحمه الله : «بلد كبير كثير الخير»، وقد جلب هذا الرفاه الاقتصادي كما يقول الشماخي رحمه الله أهل الأموال والتجار فانتقلوا إليها من مصر وإفريقيا، فكثرت الأموال، وتنافس الناس في البنيان حتى. ابتنى الناس القصور والضياع ومالية هذه الدولة كانت متكونة مما يجتمع في خزينتها من مال الزكاة والجزية والخراج، مع ما كان يجتمع لديها من تبرعات خوارج المشرق ، وخصصت للزكاة.( مؤسسة تسمى بدار الزكاة.

## ثالثا: الزكاة في عهد الدولة الأغلبية

تذكر النصوص التاريخية بأن الزكاة كانت تجبى من طرف الدولة، كما أن البعض يفضل إعطاءها لبعض من اشتهروا بالصَلاح والورع ليتولَوا القيام بتوزيعها، فذكر الشماخي أنَ أبا عبيدة الأعرج كان شيخا أشتهر بتقواه» وكان أهل المغرب كلهم مشغوفين به، ويرسلون إليه بزكاة أموالهم يصرفها حيث شاء".

و كان لسلوك المغاربة هذا في دفعهم للزكاة إلى من اشتهروا بالصلاح والورع بدلا من دفعها للدولة ما يبرره، بسبب ما أحدثه الأمراء والملوك، فقد استحدث الأمير الأغلبي أبو العباس عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب (197هـ- 201هـ) عملية تحصيل الزكاة أمورا جلبت له نقمة العامة وغضب الفقهاء ففرض الزكاة على الأراضي الزراعية وليس على كمية المحاصيل المستخلصة من تلك الأراضي، وهو ما يسمح له باستخلاص الجباية نقدا، وحسب رواية ابن عذارى المراكشي قطع العشر حبا وجعله ثمانية دنانير.

كما استحدث أبو عبد الله الشيعي تنظيمات جديدة قصد التخفيف من

وطأة الجباية على سكان المناطق التي دخلت تحت طاعته لاستمالتهم إلى دعوته، وإثارتهم ضد حكم الأغالبة. وتتعلق المحاولة الأخرى بما قام به أول خلفاء الموحدين عبد الرحمن بن علي، (عام 554 هـ) إثربسط نفوذه على كامل أقطار المغرب فسوّى وضعية الأراضي الزراعية بعد مسحها واعتبرها جميعا في حكم الأرض التي فتحت عنوة مما يتوجَب على ساكنيها دفع . الخراج وليس الزكاة واستمرَ العمل بهذا إلى غاية مجيء الأتراك إلى شمال إفريقيا.

## رابعا: الزكاة في عهد الدولة العبيدية الفاطمية

إن من أهم الأسباب التي أدت إلى سقوط الدولة الأغلبية هي معاملتها القاسية للشعب والتضييق عليها في ضرب المغارم والإتاوات الباهظة، وتعدى ذلك إلى استحداث أمور في الزكاة لتسهيل امتداد يد الدولة إلى أموال الشعب كما سبق بيانه في عهد الدولة الأغلبية، وهو ما تفطن إليه أبو عبد الله الشيعي داعية الدولة الفاطمية بالمغرب فاستحدث تنظيمات جديدة قصد التخفيف من وطأة الجباية على سكان المناطق التي دخلت تحت طاعته لاستمالتهم إلى دعوته، وإثارتهم ضد حكم الأغالبة. فانتشر المذهب الشيعي الإسماعيلي انتشارا واسعا في بلاد المغرب نتيجة تفاقم المشكلات الاقتصادية والاجتماعية، لذا قال البعض بأن الرعية وجدت في الدعوة الفاطمية، خلاصا من ظلم الحكومات الجائرة، خصوصا بعد تخفيف الفاطميين لسياستهم الجبائية.

وعند قيام هذه الدولة سنة (296هـ/ 909م) كانت الزكاة من وظائف الحكومة يقوم تحصيلها موظفون إلى جانب الخراج والجباية والمغرم .لكن

هذه الدولة ذات المذهب الشيعي الإسماعيلي أحدثت كذلك أمورا كثيرة كما قال العلامة ابن خلدون : وشذ أهل البيت بمذاهب ابتدعوها وفقه انفردوا به وبنو عليه مذهبهم . ومن جملة ما أحدثوه في مجال الزكاة أنها لا تجب في أموال التجار بل يدفع التاجر الشيعي خمس إيراده إلى الإمام.

## خامسا: الزكاة في عهد الدولة الموحدية

كانت الأموال تتدفق على هذه الدولة تدفقا عجيبا، فبلغت من الثراء مبلغا غير مسبوق، حتى كانت الأموال عندهم تقدر بالأحمال والأثقال لا بالعد والإحصاء، ومن أهم موارد هذه الدولة الزكاة والخراج وأخماس المغنم والجبايات، ومحصول التبر المستخرج من مناجم إفريقيا والأندلس، والملاحظ أنهم لم يكونوا يمنعون من تقديم شيء للدولة لعدالة عبد المؤمن ورأفته بالرعية.

## سادسا: الزكاة في عهد الدولة الحفصية.

تجتمع مصالح الحكومة لهذه الدولة في ثلاث وزارات، الجيش والقضاء والمال، وديوان المال منوط بصاحب الأشغال وهو الذي ينظر في مالية الدولة من دخل وخارج وهو المسؤول عن استخلاص الأموال والمحاسبة باسم الحكومة، وأغلب موارد خزينة هذه الدولة من الزكاة والجبايات والخراج والذي بقي ثابتا في كل هذه الدول هو عدم تخليها عن وظيفة تحصيل الزكاة.

## سابعا: العهد العثماني

تعتبر الزكاة في العهد العثماني من مصادر الدخل، بمعنى أن الدولة هي التي كانت تقوم بجمعها بموجب القانون، فكانت أراضي الملكيات الخاصّة تخضع عادة لضرائب العشور والزكاة، وكانت الضرائب في تلك الحقبة من التاريخ مقسمة إلى أنواع تبعا لنوعية الأراضي ، فتفرض

ضرائب الزكاة والعشور على الأراضي ذات الملكية الخاصَة، بينما تخضع أراضي البايلك لضرائب أخرى تتمثل في أخذ رسوم الحكور عند كرائها أو تسلم للأهالي مقابل أعمال وفوائد ومرتبات.

و كانت مداخيلها كثيرة نظرا للمساحات الشَاسعة التي تؤخذ منها فثلث الأراضي بايلك الشرق الزراعية كانت ملكيات خاصَة تخضع لهذا النِظام الجنائي وتوفر لمخازن الدَولة كل سنة : 20762 قبيسة من القمح والشعير ، كما أنَ مداخيل الأراضي العشور سنويا ببايلك التيطري كنت تقدرب : 1330 حمولة جمل.

وتمثل التنظيمات الخاصَة ببايليك الشرق والتي ظلَ العمل جاريا بها منذ حكم صالح باي(1771-1791) آخر تطور انتهى إليه نظام العشور بالأيالة الجزائرية. وكان نظام الزكاة في عهد الدولة العثمانية يأخذ بما سنه عثمان بن عفان رضي الله عنه، الذي أوجب أخذ الزكاة من الأموال الظاهرة دون الباطنة، فكانت الزكاة على الماشية والحبوب تمثل إحدى أهم موارد هذه الدولة، يوكل أمر جبايتها إلى فرقة خاصَة تعرف ب "المحلَة" حيث تقضي هذه الفرقة خمسة أشهر أو لواذا تجوب البلاد لإجبارشيوخ القبائل على دفع الزكاة والضرائب.

ذوفي هذا العهد وإن كانت الزكاة والعشور هي المفروضة على أراضي الملكيات الخاصة، إلا أن الضغط المتزايد على الأرياف في طلب العشور والضرائب أدى إلى قلة الإنتاج وإهمال الزراعة، وإعلان العصيان ، فحدثت اضطرابات وسلسلة من الثورات في جميع الجهات منها تلك التي حدثت في منطقة جرجرة ، فسببت الحملات العسكرية التي كانت تنطلق من مراكز البايلك لجمع الضرائب في إلحاق أضرارفادحة بأهالي الريف، وتعد هذه السلوكيات الجائرة التي يمارسها عمال جمع الزكاة على أصحاب الملكيات الخاصة من أهم الأسباب التي تُزهد

الناس عن أداء الزكاة ، وليس هذا الأمر بدعة أحدثه الجباة في هذه الفترة من التاريخ ، بل بدأ الانحراف منذ عهد الدولة الأموية ، لكن الله قيض في ذلك العهد عمر بن عبد العزيز الذي كان من أول أعماله لما تولى الخلافة هو إدخال إصلاحات في نظام الزكاة، لصيانة أموال الأمة ، وترغيبهم في أداء هذه الفريضة وكان من نتائج ذلك، أن العمال ينادون في الناس من يحتاج الزكاة فلا يجدون من يأخذها ، غير أن الاعتداء على أموال الملاك باسم الزكاة والعشور استمر عبر التاريخ ، على نحو ما رأيناه في الدولة الأغلبية والموحدية إلى العثمانية ، فخلق هذا التراكم حالة من عدم الثقة ، توارثها الناس عبر العصور .

وقد توصلت من خلال الجمع بين الدراسة التاريخية والميدانية إلى أن فكرة عدم الثقة في مؤسسة الزكاة، فكرة موروثة ، وموغلة في التاريخ ، تواجه القائمين على مؤسسات الزكاة اليوم.

## 1- طريقة تحصيل العشور :

كانت العشور من جملة العشور التي تقوم الدولة بجبايتها وتحصيلها وذلك عن طريق الفرق العسكرية أو المحلَة التي تجول مرتين في السَنة. فتتجوَل بالأرياف لاستخلاصها وتوقيع العقاب بالممتنعين ولعلَ هذه الآلية هي إحدى الأسباب التي أفقدت هذه الشعيرة بعدها الروحي، فكانت محلَة بايلك الشرق تنطلق في فيلقين يجوب الأول منطقة الهضاب العليا والتلَ الجنوبي بينماييمِم الآخر مناطق التلِ الشَماليَة المتاخمة لساحل البحر، ومحلَة بايلك التيطري تنطلق من مدينتي الجزائر والمدية نحو سهل عريب وبني سليمان والبرواقية ، ومحلة بايلك الغرب تنطلق من مدينة مازونة أو معسكر نحو سهل غريس ووادي مينا وجهات السرسو وتاهرت.

## 2- خلاصة الملكيات الخاصَة :

الضرائب المفروضة على الملكيات الخاصَة على قلتها تنحصر في العشر

والزكاة فتؤخذ العشر من المحاصيل الزراعية بينما تؤخذ الزكاة عن المواشي ، وتحدد في العادة حسب عدد الجابدات أو الزويجات ، ففي أراضي الحبوب يؤخذ عن كل جابدة صاع من القمح وصاع من الشَعير مع إضافة حمولتين من التِين ومقدار من الزَبدة وبعض الدَواجن كالدَجاج مثلا، لبعض القبائل الذين لهم ملكيات خاصَة ، بالسُهول، وقد بلغ ما يؤخذ عشرا وزكاة في الربع الأوَل من ( 19) التَاسع عشر ب: 2076 صاعا من القمح ونصفها من الشَعيروحمولة جمل من الجهات الوسطى ال ي يتكوَن منها . بايليك التيطري.

## 3 - تفصيل ما يدفعه البايات من الزكاة والعشور

وحسب ما جاء في مذكرات الحاج أحمد الشريف الزَهار فإنَ البايات كانوا يدفعون الزَكاة والعشور عن أوطانهم وهي على التفصيل الآتي:

### أ – زكاة باي الغرب :

يدفع باي الغرب عشرة آلاف(10000) صاعا من القمح مثلها من الشَعير ، كما يوزِع على أصحاب الدَولة وخدَامهم نحو ألفي(2000) صاعا قمحا ومثلها شعير ، وأمَا الغنم فإنَه يقدِم منها ستة آلاف (6000) رأسا، والتمروالزَيتون في كل سنة في أينار، ومن مرسى عنَابة يبعث في صيف كلِ سنة مركبا مشحونا بالشَحم والسَمن للمراكب الجهادية. ويوزِع على أصحاب الدَولة وخدَامهم مرَتين في السنة شهري أفريل وسبتمبر، ويعطي للأميروزرائه وكتابه وجميع خدَامه عوائد في جل المناسبات الدِينية، في العيدين الفطر والأضحى، يوم عاشوراء والمولد النَبوي الشَريف .

### ب– زكاة باي الشرق :

يدفع باي الشَرق مثلما ما يدفعه باي الغرب فيما يتعلَق بعوائد المواسم وزكاة القمح والغنم وأمَا الشَعير فلا، كما يزيد باي الشَرق نحو ألفي ( 2000) رأس من البقرللبايلك ، و( 1000) رأس عوائد ويفرق القمح للعوائد كذلك

### ت – زكاة باي التيطري :

بالنِسبة لزكاة الغنم فإنَه يقوم بتقديمها إلى بيت المال ويوزِع شيئا على أرباب الدَولة، وبالنِسبة لعوائد المناسبات فهو يقدِم في عيد الأضحى لا غير، وأمَا العشور فلا يبعث، وهذا راجع إلى قلَة الأراضي الفلاحية في عمالته التي يغلب عليها الطَابع الصحراوي لذا يعتمد سكَانها على تربية الأغنام والشيء اليسر الذي يقبضه من الرَعيَة يقسمه بينه وبين محلَته، أمَا العشور التي يقبضها من بلدة المدية فيجمعها ويتَخذ منها عولة لدى وكيل العولة يدفع منها لدار الإمارة كلَ شهر.

### ث - زكاة قائد سباو :

نظرا لصغر هذه المنطقة فإنَ قائد سباو (2000) ألفي قلَة زيت للبابلك ونحو(500) خمسمائة قلَة لأصحاب العوائد و( 1000 ) ألف قنطار شمعا، و(500) خمسمائة صاعا.(قمحا ومثلها شعيرا

### ثامنا: الزكاة في عهد الاحتلال الفرنسي

وفي عهد الاحتلال الفرنسي للجزائر قامت فرنسا بمحاربة كل ما له صلة بالهوية والانتماء ، ومن ذلك أنها قامت بإلغاء القوانين التي تربط المجتمع الجزائري بحضارته وانتمائه للإسلام، وحاصرت موارد الإسلام المالية كالأوقاف والزكاة ، لكن رغم ذلك بقيت الزكاة فريضة مقدسة في قلوب الجزائريين، يؤدونها بصفة تطوعية لمن يرون بأنه من المستحقين لها، وقد حاولت الزوايا وكذا جمعية العلماء المسلمين الجزائريين على مواصلة تنظيمها على الأقل في البيئة والمحيط الذي يمكن القيام بذلك، وبعد استقلال الجزائر بدأ الرجوع شيئا فشيئا إلى التمسك بقيم الأمة، ومن ذلك العمل على إعادة تنظيم الزكاة ، فتولت الدولة عن طريق وزارة الشؤون الدينية والأوقاف تأسيس هيئة تقوم بتحصيل وإعادة توزيع الزكاة.

## 8- استنتاجات سوسيوتاريخية :

و بعد هذه الدراسة السوسيوتاريخية للزكاة توصلنا إلى تسجيل الاستنتاجات الآتية :

- نلاحظ أنه لم تتخل أية دولة من الدول التي تعاقبت على حكم الجزائر عن وظيفة تحصيل الزكاة وإعادة توزيعها ، ذلك لأن هذه الدول كانت ترى بأن جمع الزكاة واجب ديني منوط بالحاكم ، ولم ينقطع العمل بذلك إلا بدخول الاستعمار الفرنسي إلى الجزائر، وعليه يمكن القول بأن تبني الجزائر لمؤسسة صندوق الزكاة هو عودة إلى ممارسة الوظائف المنوطة بالدولة التي يدين أهلها بالإسلام.

- الظاهر حسب الروايات التاريخية المسوقة في هذا الفصل أن جل الدول التي تم التطرق إليها كانت تقوم بتحصيل الزكاة من الأموال الظاهرة، والمتمثلة في الزروع والثمار ، وبهيمة الأنعام ، دون الباطنة والتي تتمثل في النقود وعروض التجارة ، وذلك منذ أن سن الصحابي الجليل عثمان بن عفان رضي الله عنه تلك الطريقة ، وهو ما كانت تقتضيه المصلحة في ذلك الزمان ، خلافا لما كان عليه العمل في خلافتي أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وإذا كانت المصلحة تدور مع متغيرات العصر فليس بدعة أن نرجع في عصرنا إلى ما كان عليه العمل قبل خلافة عثمان رضي الله عنه، خاصة في ظل انشغال أرباب الأموال عن دفع زكاة أموالهم كما نجد ذلك في الدراسة الميدانية ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى لم يعد يستساغ اليوم إطلاق الأموال الباطنة على النقود لأنها ظاهرة ومعلومة بالتفصيل، فيمكن اليوم تحديد دخل الشخص وما عليه من زكاة، والله أعلم.

- وطريقة تحصيل الزكاة عبر التاريخ ساهم في تكوين ثقافة لدى المتدينين بأن الزكاة تؤدى بصفة تطوعية، دون مراعاة ما إذا كان هذا الأمر قادرا على

مجارات نسق التطورات والقضايا المطروحة، وأصبحت ممارسة الزكاة بصفة تطوعية تدخل في قلب الثقافة الاجتماعية، وهذا ما تؤكده الدراسة الميدانية في الجدول رقم 18 المبين للكيفية التي يفضل بها المبحوثون إخراج زكاة أموالهم.

**جدول يبين الكيفية التي يدفع بها المبحوثون زكاة أموالهم.**

| الاختيارات | التكرار | النسبة % |
|---|---|---|
| تقدمها بنفسك إلى المستحقين | 202 | % 90 |
| تقدمها إلى صندوق الزكاة ليتولى توزيعها | 16 | % 7 |
| كنت تقدمها بنفسك وتنوي دفعها مستقبلا إلى الصندوق | 5 | % 2 |
| كنت تقدمها لصندوق الزكاة وتنوي دفعها مستقبلا بنفسك إلى المستحقين | 2 | % 1 |
| المجموع | 225 | 100 |

- إن دراسة الزكاة بوسائل علم الاجتماع وتحليلاته داخل إطار البعد التاريخي والوعاء الاجتماعي هو السبيل الوحيد الذي بإمكانه أن يقدم التفسير الواضح لتفاعلها وتأثرها بالصراعات القائمة في المجتمع، ومن ذلك ما أحدثه الأمير الأغلبي أبو العباس عبد الله بن ابراهيم بن الأغلب في عملية تحصيل الزكاة حتى تصل يده إلى أموال الرعية، وملأ خزينة الدولة، وهو ما جلب له نقمة العامة وغضب الفقهاء، كما كانت وسيلة في يد أبي عبد الله الشيعي لاستمالة العامة إلى دعوته وإثارتهم على حكم الأغالبة ، وذلك بتخفيف وطأتها على الناس وأعفى التجار من دفعها إلا خمسا يدفعونه إلى الأمير .

و ما قام به أول خلفاء الموحِدين عبد الرحمن بن علي، عام(554هـ) إثر بسط نفوذه على كامل أقطار المغرب إذ سوَى وضعية الأراضي الزراعية بعد مسحها واعتبرها جميعا في حكم الأرض التي فتحت عنوة مما يتوجَب على ساكنيها دفع الخراج وليس الزكاة.

وإذا نظرنا فيما أحدثه الأمير الأغلبي وأبو عبد الله الشيعي ، وعبد الرحمن بن علي ، في النصوص السالفة الذكر، وامتداد أيدي الأمويين إلى كرائم أمال الناس باسم الزكاة والعشور – باستثناء حكم عمر بن عبد العزيز ومن سار على نهجه- ، والضغط المتزايد على الأرياف في طلب العشور والزكاة والضرائب الذي أدى إلى قلة الإنتاج وإهمال الزراعة ، وإعلان العصيان، أمكننا فهم سلوك المغاربة الذين فقدوا الثقة في الدولة في تلك العصور وأصبحوا يدفعون زكاتهم لأبي عبيدة الأعرج الذي شغف الناس بورعه وتقواه ، حتى يصرفها فيما يشاء .

وعليه يمكن القول بأن مسألة عدم الثقة ليست وليدة اليوم ولكنها فكرة نمطية موروثة منذ القدم، توارثتها الأجيال وصارت راسخة في المخيال الاجتماعي، وثقافة شعبية، وهذا يؤكد النظرية القائلة أن أغلب المشكلات تعود إلى أسباب ثقافية .

**للموضوع هوامش**

# حكم إلقاء السلام ورده

**بقلم: أ. وهيبة بوداموس**
رئيسة مكتب تنظيم أعمال لجنة الفتوى

**تمهيد:**

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيّئات أعمالنا، اللهم اهدنا فيمن هديت وتولنا فيما توليت، وبارك لنا فيما أعطيت، وارزقنا قلبا خاشعا ولسانا ذاكرا، وإيمانا يضيء طريقنا إليك ،إنك أعظم من سئل وأكرم من أعطى.

وصل اللهم على سيدنا محمد،بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح للأمة، وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين، وعلى أئمة هذا الدين مشاعل النور المبين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد؛

فإن السلام من آداب الإسلام، وآداب جمع أدب، قال العلامةابن القيم رحمة الله عليه : «**الأدب هو الدين كله**»[1].وقال : «**وأدب المرء عنوان سعادته وفلاحه، وقلة أدبه عنوان شقاوته وبواره، فما استجلب خير الدنيا والآخرة بمثل الأدب ولا استجلب حرمانها بمثل قلة الأدب**»[2].

قال أبو علي الدقاق : العبد يصل بطاعة الله إلى الجنة، ويصل بأدبه في طاعته إلى الله.

وأما حكم إلقاء السلام ورده فسأتناوله في مبحثين : المبحث الأول حكم إلقاء السلام ، والمبحث الثاني حكم رد السلام. وعلماء الحديث والفقه لم يوردوه في كتبهم بهذا العنوان إنما وجد حكم كل منهما تحت أبواب مختلفة فمثلا عند مسلم «**باب يسلم الراكب على الماشي**» وكذا

عند البخاري، وفي كتاب سبل السلام للإمام الصنعاني تحت كتاب الجامع «باب ليسلم الصغيرعلى الكبير».

وقبل الحديث عن هذا الحكم نقف وقفة مع مفهوم كلمة «حق» أوما المراد بكلمة الحق الواردة في الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما: عن أبي هريرة رضي لله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «حق المسلم على المسلم خمس: ردّ السلام وعيادة المريض، واتباع الجنائز وإجابة الدعوة، وتشميت العاطس»[3].

وزاد مسلم **«وإذا استصحك فانصح له»**.

قال الإمام الصنعاني: «والحديث دليل على أن هذه حقوق على المسلم، والمراد بالحق مالا ينبغي تركه، ويكون فعله إما واجبا أو مندوبا ندبا مؤكدا شبيها بالواجب الذي لا ينبغي تركه ويكون استعماله في المعنيين من باب استعمال المشترك في معنييه. فإن الحق يستعمل في معنى الواجب، كذا ذكره ابن الأعرابي»[4].

قال الإمام الشوكاني: قال ابن بطال: « **المراد بالحق هنا الحرمة والصحبة**»

قال ابن حجر العسقلاني: «**الظاهر أن المراد به وجوب كفاية**»[5].

وقال الإمام الصنعاني : «ويؤخذ من مفهوم قوله حق المسلم على المسلم أنه ليس للذمّي حق في ردّ السلام».

## المبحث الأول: حكم إلقاء السلام

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«يسلّم الراكب على الماشي والماشي على القاعد، والقليل على الكثير»**[6].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«ليسلّم الصغيرعلى الكبير، والمار على القاعد، والقليل على الكثير»**[7] ولمسلم: **«والراكب على الماشي»**.

قال الإمام النووي: « **اعلم أن ابتداء السلام سنّة، فإن كان المسلّم جماعة فهو سنّة كفاية في حقهم إذا سلّم بعضهم حصلت سنّة السلام في**

**حق الجميع».**

قال الإمام الصنعاني: فالأولى: السلام عليه عند ملاقته لقوله: «**إذا لقيته فسلّم عليه**» على رواية مسلم، والأمر دليل على وجوب الابتداء بالسلام إلاّ أنه نقل ابن عبد البر وغيره أن ابتداء السلام سنّة»[8].

وقال القرطبي: «**أجمع العلماء على أن ابتداء السلام سنّة مرغّب فيها**»[9]، وذكر الإمام الصنعاني أن المصنّف –أي ابن حجر- قال: والظاهر الأمر الوجوب.

وذهب الإمام المازري إلى إنه للندب فلو ترك المأمور الابتداء وبدأ الآخر كان المأمور تاركا للمستحب والآخر فاعلا للسنّة.

قال الإمام الصنعاني: «**والأصل في الأمر الوجوب كأنّه صرفه عنه الاتفاق على عدم وجوب البداءة بالسلام**»[10].

قال: والحديث فيه شرعية ابتداء السلام من الصغير على الكبير.

قال: قال ابن بطال عن المهلب: وإنما شرع للصغير أن يبتدء الكبير لأجل حق الكبير لأنه أمر بتوقيره والتواضع له، ولو تعارض الصغر المعنوي والحسي كأن يكون الأصغر أعلم مثلا قال المصنّف لم أر فيه نقلا، والذي يظهر اعتبار السن لأن الظاهر تقديم الحقيقة على المجاز، وفيه شرعية ابتداء المار بالسلام على القاعد.

قال الإمام المازري: لأنه قد يتوقع القاعد منه الشر ولا سيما إذا كان راكبا، فإذا ابتدأه بالسلام أمن منه وأنس إليه، أو لأن القاعد يشق عليه مراعاة المارين مع كثرتهم فسقطت البداءة عنه للمشقّة عليه، وفيه شرعية ابتداء القليل بالسلام على الكثير وذلك لفضيلة الجماعة أو لأن الجماعة لو ابتدأوا لخيف على الواحد الزهو فاحتيط له، فلو مرّ جمع كثير على جمع قليل أو مرّ الكبير على الصغير قال المصنّف: لم أر فيه نصا.

واعتبر الإمام النووي المرور فقال: الوارد يبدأ سواء كان صغيرا أو كبيرا،

وأما إذا تلاقى راكبان أو ماشيان فقد تكلم فيها الإمام المازري فقال: «**يبدأ الأدنى منها على الأعلى قدرا في الدين إجلال لفضله لأن فضيلة الدين مرغّب فيها في الشرع وعلى هذا لو التقى راكبان ومركوب أحدهما أعلى في الجنس من مركوب الآخر كالجمل والفرس فيبطأ راطب الفرس أو يكتفي بالنظر إلى أعلاهما قدرا في الدين فيبدأ الذي هو أدنى الذي هو فوقه، والثاني أظهر؛ كما لا يظهر إلى من يكون أعلاهما قدرا من جهة الدنيا إلا أن يكون سلطانا يخشى منه**».

وإذا تساوى المتلاقيان من كل جهة فكل منهما مأمور بالابتداء وخيرهما الذي يبدأ بالسلام، وقد أخرج البخاري في الأدب المفرد بسند صحيح من حديث جابر : «**الماشيان إذا اجتمعا فأيهما بدأ بالسلام فهو أفضل**»، وأخرج الإمام الطبراني بسند صحيح الأغر المزني قال: قال لي أبو بكر الصديق رضي الله عنه: «لا يسبقك أحد بالسلام»[11].

قال الإمام الزرقاني: وإذا سلم من القوم الراكبين والماشين أو القليلين أو الصغار (واحد) منهم أجزأ في تحصيل السنّة للحديث الذي رواه الأمام مالك رحمه الله في موطئه عن زيد بن أسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((**يسلّم الراكب على الماشي وإذا سلّم من القوم واحد أجزأ عنهم**)) (الحديث مرسل باتفاق الرواة).

قال فهو أصل للإجماع على أن الابتداء بالسلام سنّة كفاية إذا سلّم واحد كفى»[12].

قال الإمام النووي: «**والأفضل أن يبدأ الجميع بالسلام**»[13]؛ وقال: يستثنى من عموم ابتداء السلام من كان يأكل أو يشرب أو يجامع أو كان في الخلاء، أو في الحمام أو نائما أو ناعسا أو مصليا أو مؤذنا مادام ملتبسا بشيء مما ذكر، إلا أن السلام على من كان في الحمام إنما كره إذا لم يكن عليه إزار وإلا فلا كراهة.

وأما المشتغل بقراء القرآن فقال الإمام الواحدي: الأولى ترك السلام عليه فإن سلّم كفاه الرد بالإشارة وإن ردّ لفظا استأنف الاستعاذة وقرأ.

قال الإمام النووي فيه نظروالظاهر أنه يشرع السلام عليه ويجب عليه الرد.

وفي سبل السلام، يندب السلام على من دخل بيتا ليس فيه أحد لقوله تعالى: ﴿ . .فإذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم..﴾ [14]. ويُستحب أن يقول - كما جاء في الأدب المفرد-: «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين».

قال الإمام الصنعاني: فإن ظن المار أنه إذا سلّم على القاعد لا يرد عليه فإنه يترك ظنه ويسلّم (عليه) فلعل ظنه يخطئ فإنه إن لم يرد عليه سلامه ردّت عليه الملائكة، وأمّا من قال لا يسلم على من ظنّ أنه لا يرد عليه لأنه يكون سببا لتأثيم الآخر فهو كلام غير صحيح لأن المأمورات الشرعية لا تترك بمثل هذا[15].

وقال الإمام ابن دقيق العيد: «لا ينبغي أن يسلم عليه لأن توريط المسلم في المعصية أشدّ من مصلحة السلام عليه وامتثال حديث الأمر بالإفشاء يحصل مع غير هذا»[16]. والله أعلم

المبحث الثاني: حكم رد السلام

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها﴾[17]؛ في تفسير هذه الآية يقول ابن كثير: **«أي إذا سلّم عليكم المسلم فردوا عليه أفضل ممّا سلّم (عليكم) أو ردوها عليه بمثل ما سلّم، فالزيادة مندوبة والمماثلة مفروضة»**(18).

وذكر الزرقاني قول ابن المنذر: «.. والابتداء سنّة والرّد واجب اتفاقا، فبطل تأويل الطحاوي الحديث (الذي رواه مالك عن زيد بن أسلم) على أن معناه ابتداء السلام نصرة لمذهبه أن ردّه فرض عين وقد روى أبو داود وغيره بإسناد حسن عن علي رضي الله عنه مرفوعا: **((يجزئ من الجماعة إذا مرّت أن يسلّم أحدهم ويجزئ عن القعود أن يردّ أحدهم))** فسوّى بين

الابتداء والرّد أنّهما على الكفاية هو نص في موضع النزاع لا معارض له»[19].

قال الإمام محمد بن ادريس الشافعي: «**أن الزيادة سنّة والرّد واجب في أصل السلام**»[20].

وقال ابن القيم رحمه الله في هذا الحديث: «**ذهب إلى الحديث من قال إن الرّد فرض كفاية يقوم فيه الواحد مقام الجميع، ولكن ما أحسنه لو كان ثابتا، فإن هذا الحديث رواه أبو داود من رواية سعيد بن خالد الخزاعي المدني قال أبو زرعة الرازي: مدني ضعيف، وقال أو حاتم الرازي: ضعيف الحديث، وقال البخاري فيه نظر، وقال الدارقطني ليس بالقوي**»[21].

قال ابن عبد البر: «**والمتبادر من حديث زيد ابن أسلم ما فهمه الطحاوي لكن يحمل قوله أجزأ أي في السنة كما اعترف به أبو عمر، ولكن لا دليل فيه أن ردّ السلام فرض عين، وقد جاء في حديث على أنه فرض كفاية فوجب المصير إليه والله أعلم**»[22].

وقد جاء في تفسير القرطبي للآية السابقة أن العلماء أجمعوا على أن ردّ السلام فريضة لقوله تعالى: ﴿فحيّوا بأحسن منها أو ردوها﴾، واختلفوا إذا ردّ واحد من الجماعة هل يجزئ أم لا؟ فذهب مالك والشافعي إلى الإجزاء وأن المسلّم قد ردّ عليه مثل قوله.

قال الزرقاني: «**قال ابن عبد البر: شبهه الشافعي بصلاة الجماعة والجهاد**».

وذهب الكوفيون على أن ردّ السلام من الفروض المتعيّنة، قالوا: والسلام خلاف الرد لأن الابتداء تطوع ورده فريضة، ولو رد غير المسلم عليهم لم يسقط ذلك عنهم فرض الرد، فدل على ان رد السلام يلزم كل انسان بعينه، حتى قال قتادة والحسن: أن المصلي يرد السلام كلاما إذا سلّم عليه ولا يقطع ذلك عليه صلاته لأنه فعل ما أُمر به والناس على خلاف ذلك.

احتج الأولون بما رواه أبو داود عن علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ: ((**يجزئ من الجماعة إذا مروا أن**

**يسلّم أحدهم ويجزئ عن الجلوس أن يردّ أحدهم))**. واحتجوا أيضا بقوله ﷺ : **((يسلم القليل على الكثير))** ولما أجمعوا على أن الواحد يسلّم على الجماعة ولا يحتاج إلى تكريره على عدد الجماعة كذلك يرد الواحد عن الجماعة وينوب عن الباقين كفروض الكفاية[23]. والأفضل أن يسلم الجميع ويرد الجميع كما قال النووي رحمة الله عليه قال: وعن أبي يوسف أنه لابد أن يرد الجميع. قيل أن الأمر بإفشاء السلام سبب للتحاب كما جاء في صحيح مسلم مرفوع وسبب للتواد وما أحوج أمتنا لمثل هذه الصيغات ليتراصّ بنيانها ويقوم المجتمع على أسس قوية .

ومن خلال ما سبق ذكره يتبين لنا أنه من الأحسن بل يجب على كل واحد منا إذا لقي أخاه المسلم أن يسلم عليه لما جاء في الحديث من الأمر، والأمر للوجوب، وأما إجماع ابن عبد البر فلا أظنه قرينة تصرفه عن الوجوب إلى الندب لأنه قد قال في مقام آخر أن إلقاء السلام سنّة اتفاقا ؛ وكذا الردّ أي ردّ السلام فيجب وجوب كفاية كإلقاء السلام، حيث جاء في حديث علي رضي الله عنه بالتسوية بين الأمرين، وبما أنه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما قال ابن دقيق العيد: «**هل يحسن أن يقول : «ردّ السلام فإنه واجب»** قيل نعم فإنه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإن لم يجب حسن أن يحلله من حق الردّ[24].

وأما الأمر بالمعروف والنهي فقد أمرنا بهما والأمر يفيد الوجوب، والله أعلم.

## مسألة

قال ابن رشد: اختلف العلماء في ردّ السلام بالنسبة للمصلي على من يسلّم عليه، بن أبي الحسن البصري، وقتادة، ومنع ذلك قوم بالقول وأجازوا الردّ بالإشارة، وهو مذهب مالك والشافعي، ومع آخرون ردّه بالقول وبالإشارة، وهو قول النعمان، وأجاز قوم الردّ في نفسه، وقوم قالوا يردّ إذا فرغ من الصلاة.

والسبب في اختلافهم هل ردّ السلام من نوع التكلّم في الصلاة المنهيّ عنه أم لا؟ فمن رأى أنه من نوع الكلام المنهي عنه، وخصص الأمر بردّ السلام في قوله تعالى: ﴿وإذا حيّيتم بتحية فحيّوا بأحسن منا أو ردّوها﴾ بأحاديث النهي عن الكلام في الصلاة: لا يجوز الردّ في الصلاة، ومن رأى أنه ليس داخلا في الكلام المنهي عنه، أو خصص أحاديث النهي بالأمر بردّ السلام، أجازه بالصلاة، قال أوبو بكر بن المنذر: ومن قال لا يرد .. فقد خالف السنة لأنه قد أخبر حبيب أن النبي ﷺ ردّ على الذين سلموا عليه وهو في لصلاة بالإشارة [25].

هذا ما تيسر جمعه، والله الموفق والهادي إلى الصواب والملهم للسداد، إنه أكرم مأمول وأجلّ مسؤول وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ورضي الله على الصحابة ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.

## الهوامش:

1 - مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين 2 / 384

2 - مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين 2 /391

3 - أخرجه البخاري في صحيحه 2 /70 في الجنائز، ومسلم في صحيحه كتاب السلام 2162 ، وابن ماجة في سننه 1 /461 كتاب الجنائزباب ماجاء في عيادة المريض.

4 - سبل السلام شرح بلوغ المرام من جمع أدلة الأحكام 4 /275

5 - نيل الأوطار 4 /16

6 - أخرجه البخاري، فتح الباري 11 /14 في الاستئذان باب يسلم الراكب على الماشي، ومسلم في صحيحه 14 /40 كتاب السلام باب يسلم الراكب على الماشي والقليل على الكثير.

7 - منفق عليه

8 - سبل السلام شرح بلوغ المرام من جمع أدلة الأحكام 4 /276

9 - الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 5 /298

10 - سبل السلام شرح بلوغ المرام من جمع أدلة الأحكام 4 /285

11 - سبل السلام شرح بلوغ المرام من جمع أدلة الأحكام 4 /285 - 286

12 - شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك 4 /357

13 - صحيح مسلم بشرح النووي 14 /140 كتاب السلام باب يسلم الراكب على الماشي، سبل السلام شرح بلوغ المرام من جمع أدلة الأحكام 4/276 كتابع الجامع باب الأدب.

14 - سورة النور : 61

15 - سبل السلام 4 /276

16 - المصدر السابق

17 - سورة النساء: 86

18 - تفسير القرآن العظيم 1 /456

19 - شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك 4 /357

20 - دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين 5/398

21 - زاد المعاد 2 /427

22 - شر الزرقاني 4 /357

23 - الجامع لأحكام القرآن الكريم 5 /298

24 - سبل السلام 4 /287

25 - بداية المجتهد نهاية المقتصد 1 /131 كتاب الصلاة

# مكانة عمل أهل المدينة من السنة النبوية[*]

**بقلم: د. محند أوويدير مشنان**
مفتش مركزي

عمل أه ل المدينة من الأصول التي تميزبها المذهب المالكي باعتباره مذهب أهل المدينة، وقد اختلفت فيها وجهات النظر، فنسب جمهور علماء الأصول إلى المالكية أنهم يعتبرون عمل أهل المدينة نوعا من أنواع الإجماع، وأطلقوا عليه اسم «**إجماع أهل المدينة**»، وذكروا في تعريفه ما مفاده أنه: **اتفاق مجتهدي المدينة في عصر الصحابة والتابعين على حكم شرعي**.

غيرأن المطلع على رأي المالكية في الموضوع من حيث الأصول المنهجية، ومن حيث الفروع التطبيقية، يكتشف أن أئمة المالكية يرون ما يراه الجمهور من أن الإجماع هو إجماع الأمة الذي يشترط فيه اتفاق كل المجتهدين، ويرون أن عمل أهل المدينة أصل آخر غيرالإجماع، وليس نوعا من أنواع الإجماع، فكتب أصول الفقه المالكية تفرق بين الإجماع، وعمل أهل المدينة، وتؤكد على أنهما أصلان متغايران وليسا أصلا واحدا.

فمفهوم الإجماع عند المالكية هو المفهوم ذاته عند بقية المذاهب الفقهية، وهو اتفاق جميع المجتهدين من المسلمين في جميع الأمصارعلى حكم شرعي عن نظرواجتهاد، بينما إجماع أهل المدينة هو اتفاقهم على نقل سنن شاهدوها وليس طريقه النظروالاجتهاد.

هذا، وإن المحققين من العلماء وخاصة أتباع الإمام مالك رضي الله عنه

استخلصوا من أقواله وآرائه منهجه الاجتهادي ومصادر فقهه، فذكروا منها الكتاب والسنة والإجماع والقياس وعمل أهل المدينة وغيرها، فدل ذلك على أنهما مصدران متغايران عنده، وأن كل واحد منهما أصل قائم بذاته.

## تعريف عمل أهل المدينة

تعدَّدت عبارات العلماء في تعريفه، وأختار منها تعريفين لباحثين معاصرين خصصا بحثين لعمل أهل المدينة.

عرفه الأستاذ الدكتور نور سيف بأنه: **((ما نقله أهل المدينة من سنن نقلا مستمرا عن زمن النبي ﷺ أو ما كان رأيا واستدلالا لهم))**.

وعرفه الدكتور موسى إسماعيل بأنه: **((ما اتفق عليه أهل المدينة من الصحابة والتابعين وعملوا به، سواء كان توقيفيا أو رأيا واستدلالا لهم))**.

## مراتب عمل أهل المدينة عند المالكية

يستخلص من تعريف عمل أهل المدينة عند السادة المالكية أنه من قبيل السنن والأخبار أو من قبيل الاجتهاد، وليس من قبيل الإجماع، ومن ثَمَّ فإن له مرتبتين أساسيتين هما: العمل النقلي، والعمل الاجتهادى.

**أ. العمل النقلي:** ما استند فيه المجمعون من أهل المدينة على النقل والرواية دون النظر والاستدلال، أو هو ما كان من طريق النقل والحكاية الذي تنقله الكافة عن الكافة وعملت به عملا لا يخفى، ونقله الجمهور عن زمن النبي صلى الله عليه وسلم.

أو هو ما كان طريقه النقل المتواتر، سواء كان المنقول قولا مثل الأذان والإقامة وصفتهما، أو فعلا كصفة صلاة النبي صلى الله عليه وسلم، أو إقرارا لما شاهده النبي صلى الله عليه وسلم من أصحابه، أو تركا لأمور ظاهرة لم يدخلها في حكم شبيهاتها، كتركه أخذ الزكاة في الخضروات من جنسها مع كثرتها في بساتين المدينة، ومن هذا النوع أيضا نقلهم لمقدار المد والصاع، وتعيينهم مكان المنبر...

**ب. العمل الاجتهادي:** هو اتفاقهم على عمل من طريق النظر والاجتهاد، وليس موروثا عن زمن النبي صلى الله عليه وسلم، سواء كان فتاوى أو أقضية.

أو هو ما استندوا فيه إلى النظر والاجتهاد عن طريق القياس والاستحسان وسائر الأدلة العقلية الأخرى.

## أقسام عمل أهل المدينة عن الإمام ابن تيمية

يرى الإمام ابن تيمية أن عمل أهل المدينة أربعة أقسام:

**. العمل المنقول عن النبي صلى الله عليه وسلم:** وهو ما يجري مجرى النقل عن النبي صلى الله عليه وسلم، مثل نقلهم لمقدار الصاع والمد، وكترك صدقات الخضروات، والأحباس. وهذا النوع من العمل حجة باتفاق العلماء من المالكية والشافعية والحنابلة، كما أنه حجة عند أبي حنيفة وأصحابه.

**. العمل القديم:** العمل القديم بالمدينة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم وقبل مقتل عثمان بن عفان ﷺ فهذا النوع حجة في مذهب مالك، وهو المنصوص عن الشافعي، وهو ظاهر مذهب أحمد، لأن ما سنه الخلفاء الراشدون حجة عنده يجب اتباعها. والمحكي عن الإمام أبي حنيفة رحمه الله أن قول الخلفاء الراشدين حجة... ثم قال: وما يعلم لأهل المدينة عمل قديم على عهد الخلفاء الراشدين مخالف لسنة الرسول صلى الله عليه وسلم.

**. العمل المتأخر:** أي بعد مقتل عثمان ﷺ وظهور الفتنة وانتشار الصحابة في الأمصار، فهذه المرتبة اختلف فيها هل هي حجة شرعية يجب اتباعها أم لا؟.

**أقسام عمل أهل المدينة عن الإمام ابن القيم:** يمكن تلخيصها فيما يأتي:

**. العمل النقلي:** وهو ما كان طريقه النقل والحكاية، ويشمل نقل الأحاديث المدنية، ونقل فعله وتقريره

وتركه صلى الله عليه وسلم، كما يشمل نقل الأعيان وتعيين الأماكن مثل نقلهم لمقدار الصاع والمد، وتعيينهم لموضع قبره صلى الله عليه وسلم ومنبره وحجرته وموقفه للصلاة...، إضافة إلى نقل العمل المستمر من عهد النبي صلى الله عليه وسلم كنقلهم الأوقاف والمزارعة، والأذان على المكان المرتفع، والأذان للصبح قبل الفجر، وتثنية الأذان وإفراد الإقامة.

. **العمل الاجتهادي:** وهو العمل الذي طريقه الاجتهاد والاستدلال.

## أقسام العمل النقلي

ذكر القاضي عياض رحمه الله العمل أن النقلي أربعة أنواع هي:

**النوعان الأول والثاني:** ما نقل شرعا من جهة النبي صلى الله عليه وسلم من أقوال وأفعال، كمقدار الصاع والمد، وأخذه صلى الله عليه وسلم بذلك صدقاتهم وفطرتهم، وكالأذان والإقامة، وترك الجهر بالبسملة في الصلاة، والأوقاف والأحباس.

**النوع الثالث:** نقل إقراره صلى الله عليه وسلم لما شاهده من أقوالهم وأفعالهم ولم ينقل عنه إنكارا، كنقل عهدة الرقيق.

**النوع الرابع:** نقل تركه صلى الله عليه وسلم لأمور وأحكام لم يلزمهم بالعمل بها مع أنها مشهورة بينهم وظاهرة فيهم، مثل تركه عليه الصلاة والسلام أخذ الزكاة من الخضروات مع علمه بكونها عندهم كثيرة.

## تفصيل أنواع العمل النقلي

العمل النقلي ثلاثة أنواع:

**النوع الأول:** عمل منسوب إلى النبي صلى الله عليه وسلم: وهو قسمان:

**أحدهما:** أن يصرح أهل المدينة بالنقل خلفا عن سلف أن العمل منقول عن النبي صلى الله عليه وسلم، وأنه عليه الصلاة والسلام قد اطلع على عملهم ووافقهم عليه.

ومثال هذا القسم ما ذكره مالك في الموطأ في كتاب النكاح أن من حق الزوجة الجديدة على زوجها المقام

عندها سبع أيام ولياليهن إن كانت بكرا، وثلاثا إن كانت ثيبا.

فروي عن أبي بكر بن عبد الرحمان بن الحارث بن هشام المخزومي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين تزوج أم سلمة وأصبحت عنده قال لها **((لَيْسَ بِكِ عَلَى أَهْلِكِ هَوَانٌ، إِنْ شِئْتِ سَبَّعْتِ عِنْدَكِ وَسَبَّعْتُ عِنْدَهُنَّ، وَإِنْ شِئْتِ ثَلَّثْتُ عِنْدَكِ وَدُرْتُ. فَقَالَتْ: ثَلِّثْ))**.

وعن أنس بن مالك ﷺ أنه كان يقول: **((لِلْبِكْرِ سَبْعٌ وللثَّيِبِ ثَلاَثٌ))**، قال مالك: **((وذلك الأمر عندنا))**.

**والثاني:** لا يصرحون فيه بالنقل عن النبي صلى الله عليه وسلم، ولكن يغلب على الظن أنه عن توقيف منه صلى الله عليه وسلم.

وهذا القسم من العمل حجة شرعية وسنة متواترة يجب الرجوع إليها، وعنه يقول ابن القصار رحمه الله: **((ومن مذهب مالك رحمه الله العمل على إجماع أهل المدينة فيما طريقه التوقيف من الرسول صلى الله عليه وسلم، أو كان الغالب منه أنه توقيف منه عليه الصلاة والسلام))**.

ومثاله اشتراط عدم الدين في وجوب زكاة العين دون الثمار والماشية والمعدن وخمس الركاز، ففي المدونة أن سحنونا سأل ابن القاسم فقال: **((فما فرق بين الماشية والثمار والحبوب والدنانير في الزكاة؟ فقال: لأن السنة إنما جاءت في الضمار وهو المال المحبوس في العين، وأن النبي صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر وعثمان وعمر بن عبد العزيز كانوا يبعثون الخراص في وقت الثمار فيخرصون على الناس لإحصاء الزكاة، ولما للناس في ذلك من تعجيل منافعهم بثمارهم، الأكل والبيع وغير ذلك، ولا يؤمرون فيه بقضاء ما عليهم من دين ليحصل أموالهم، وكذلك السعاة يبعثونهم فيأخذون من الناس مما وجدوا في أيديهم ولا يسألونهم عن شيء من الدين...))**.

وظاهِرٌ من هذه النقول أن عمدة مالك رحمه الله في اشتراط السلامة

من الدين في زكاة العين وتفريقه بينها وبين غيرها هو العمل الذي كان جاريا في المدينة.

## النوع الثاني: أقضية وفتاوى الخلفاء الراشدين والصحابة ﷺ.

وينقسم هذا النوع من العمل إلى ثلاثة أقسام:

**الأول:** أن يستند إلى نص من الكتاب والسنة، فهو حجة قوية باعتبار مستنده ولجريان الحكم والعمل به عندهم.

ومن أمثلة هذا النوع اشتراط الصيام في الاعتكاف، فعن مالك أنه بلغه أن القاسم ابن محمد ونافعا مولى عبد الله بن عمر قالا: ((لا اعتكاف إلا بصيام، لقوله تبارك وتعالى في كتابه: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾. فإنما ذكر الله الاعتكاف مع الصيام.

قال مالك: **((وعلى ذلك الأمر عندنا، أنه لا اعتكاف إلا بالصيام))**.

**الثاني:** أن يكون فيما لا يعرف بالعقل ولا يدرك بالقياس، فهذا أيضا حجة لأنه في حكم الخبر المرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

يقول حسن بن محمد المشاط رحمه الله: **((إن عمل أهل المدينة حجة عند مالك رحمه الله تعالى فيما طريقه التوقيف ولا مجال للرأي فيه))**.

ومثال هذا النوع من العمل مسألة الرعاف في الصلاة، فالذي عليه مالك وأصحابه أن الإمام والمأموم إذا رعف أي سال الدم من أنفه أثناء الصلاة يخرج لغسل الدم ثم يبني أي يتم الصلاة ولا يقطعها، وعمدتهم في ذلك عمل جمهور أهل المدينة من الصحابة والتابعين بذلك، وهذا مما لا يدرك بالقياس فيكون توقيفا.

ففي الموطأ عن مالك عن نافع **((أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ كَانَ إِذَا رَعَفَ،**

**انْصَرَفَ فَتَوَضَّأَ، ثُمَّ رَجَعَ فَبَنَى وَلَمْ يَتَكَلَّمْ))**.

وعن مالك أيضا أنه بلغه **((أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَبَّاسٍ كَانَ يَرْعُفُ فَيَخْرُجُ فَيغْسِلُ الدَّمَ، ثُمَّ يَرْجِعُ فَيَبْنِي عَلَى مَا قَدْ صَلَّى))**.

وفي المدونة ذكر سحنون رحمه الله أثر ابن عمر رضي الله عنهما ثم نقل عن ابن وهب أنه قال: وبلغني عن سعيد بن المسيب وسالم وابن عباس وطاووس وعروة بن الزبير ويحي بن سعيد مثله.

قال يحيى بن سعيد الأنصاري: ما نعلم عليه وضوء، وهذا الذي عليه الناس.

**الثالث:** أن ينتشر فيهم العمل ولا يعرف لهم فيه مخالف، فهو حجة أيضا لأنه من الإجماع السكوتي، وخاصة أن أقضية الخلفاء وفتاويهم كانت ظاهرة ومنتشرة وسرعان ما يعلم بها القاصي والداني.

واعتبر هذا النوع ضمن العمل النقلي، لأن الإجماع من الأدلة النقلية، لأن النصوص من القرآن الكريم والسنة المتواترة قد أثبتت أن الأمة لا تجتمع على ضلالة.

ومثال هذا القسم أخذ العشر من تجار أهل الذمة مما يجلبونه من السلع للبيع والشراء من بلد إلى بلد، وقد أخبر مالك عن دليله في هذه المسألة بقوله: **((بذلك مضت السنة))**، ثم قال في آخر كلامه: **((وهذا الذي أدركت عليه أهل العلم ببلدنا))**.

يقول الباجي رحمه الله: **((والأصل في ذلك فعل عمر بن الخطاب ﷺ بحضرة الصحابة وموافقتهم، ولم يخالف عليه أحد، فثبت أنه إجماع))**.

## النوع الثالث: أقضية وفتاوي التابعين فيما لا يدرك بالرأي ولا يعرف بالقياس

وقد اعتد مالك بهذا النوع من العمل المنقول عن التابعين، لأن غالب الظن أنهم قد أخذوا ذلك عن الصحابة ﷺ.

ومن أمثلة هذا النوع مساواة جراح المرأة جراح الرجل إلى ثلث الدية، فإن

جاوز الثلث فعلى النصف من ديته، وهو قول عمر بن الخطاب وابنه عبد الله وزيد بن ثابت ﷺ وبه قال الفقهاء السبعة وعمر بن عبد العزيز والزهري وربيعة ومالك وأحمد واسحاق والشافعي في القديم.

وعمدة الإمام مالك في المسألة عمل أهل المدينة، فقد روى في الموطأ عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن أنه قال: **((كَمْ فِي إِصْبَعِ الْمَرْأَةِ؟ فَقَالَ: عَشْرٌ مِنَ الْإِبِلِ. فَقُلْتُ: كَمْ فِي إِصْبَعَيْنِ؟ فَقَالَ: عِشْرُونَ مِنَ الْإِبِلِ. فَقُلْتُ: كَمْ فِي ثَلاَثٍ؟ فَقَالَ: ثَلاَثُونَ مِنَ الْإِبِلِ. فَقُلْتُ: كَمْ فِي أَرْبَعٍ؟ فَقَالَ: عِشْرُونَ مِنَ الْإِبِلِ. فَقُلْتُ: حِينَ عَظُمَ جُرْحُهَا وَاشْتَدَّتْ مُصِيبَتُهَا نَقَصَ عَقْلُهَا؟ فَقَالَ سَعِيدٌ: أَعِرَاقِيٌّ أَنْتَ؟ قَالَ، فَقُلْتُ: بَلْ عَالِمٌ مُتَثَبِّتٌ. أَوْ جَاهِلٌ مُتَعَلِّمٌ. فَقَالَ: هِيَ السُّنَّةُ يَا ابْنَ أَخِي))**.

## حكم العمل النقلي

إن معظم فقهاء المالكية يعتبرونه حجة شرعية قطعية، لابد من العمل به، ويرجح على خبر الآحاد والقياس، لأن هذا النقل محقق معلوم يفيد القطع، وهو مقدم على الدليل الظني.

وإنما قيل بحجيته، لأن ذلك الجمع الكبير من الصحابة من أهل المدينة شاهدوا الوحي وعلِمُوا سنة النبي صلى الله عليه وسلم وعايشوا آخر ما استقر عليه التشريع.

ولأن هؤلاء التابعين الذين سمعوا الصحابة وشاهدوهم وأخذوا عنهم يستحيل أن يخطئوا جميعا في نقل شيء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم لا ينقلون بهذا الشكل المستفيض المتواتر إلا ما ثبت فعلا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولا يعقل أن يتواطأ هؤلاء جميعا ويكذبوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وينسبوا إليه ما لم يقله وما لم يفعله وما لم يقره، وهم العدولُ الثقاتُ الضابطون.

فدل ذلك على أن ما نقله أهل المدينة من العمل النقلي لا يمكن أن يكون إلا في حكم السنة المتواترة التي

يجب العمل بها وتقديمها على ما دونها رتبة من الأدلة، كخبر الآحاد والقياس ونحو ذلك.

وهذا النوع هو الذي قصده مالك رحمه الله في رأي أكثرشيوخ المذهب، ولا ينبغي لأحد أن يخالف في صحة العلم والاحتجاج به ولذلك رجع القاضي أبو يوسف وغيره ممن ناظر مالكا في مسألة الأوقاف والمد والصاع والأذان عن رأيه حين شاهد هذا النقل وتحققه.

أما الذين خالفوا المسائل المنقولة عند أهل المدينة فهم معذورون كما يرى عياض بأن النقل الذي بها لم يبلغهم، ولو بلغهم لأخذوا به.

ومن أقوالهم التي توجب الرجوع إلى عمل أهل المدينة وترجيحه على الخبر إذا خالفه نورد ما يأتي: عن عبد الرحمن بن أبي الزناد قال: ((كان عمر بن عبد العزيز يجمع الفقهاء ويسألهم عن السنن والأقضية التي يعمل بها فيثبتها، وما كان لا يعمل به الناس فيها . أعني أهل المدينة . ألغاه وإن كان مخرجه ثقة)).

وعن عبد الرحمن بن مهدي قال: قال ربيعة: **((ألف عن ألف أحب إلي من واحد عن واحد، لأنَّ واحدا عن واحد ينتزع السنة من أيديكم))**.

يقول ابن تيمية رحمه الله في العمل المنقول عن النبي صلى الله عليه وسلم والذي يجري مجرى النقل عن النبي صلى الله عليه وسلم، مثل نقلهم لمقدار الصاع والمد: **((وهذا النوع من العمل حجة باتفاق العلماء من المالكية والشافعية والحنابلة، كما أنه حجة عند أبي حنيفة وأصحابه))**.

وقال عن العمل القديم بالمدينة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم وقبل مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه: **((فهذا النوع حجة في مذهب مالك، وهو المنصوص عن الشافعي، وهو ظاهر مذهب أحمد، لأن ما سنه الخلفاء الراشدون حجة عنده يجب اتباعها. والمحكي عن الإمام أبي حنيفة رحمه الله أن قول الخلفاء الراشدين حجة... ثم قال: وما يعلم لأهل المدينة عمل قديم على عهد الخلفاء**

**الراشدين مخالف لسنة الرسول صلى الله عليه وسلم))**. وبمثل ذلك قال تلميذه ابن القيم رحمه الله.

## المطلب الثاني: العمل الاجتهادي

وهو اتفاقهم على عمل من طريق النظر والاجتهاد، وليس موروثا عن زمن النبي صلى الله عليه وسلم.

حكم العمل الاجتهادي: هذا النوع من العمل اختلف فيه أئمة المالكية على ثلاثة أقوال:

**القول الأول:** أنه ليس بحجة ولا مرجح، بل هو اجتهاد لا فرق بينه وبين اجتهاد غيرهم، ومن قال بحجيته فنظر إليه على أنه إجماع واتفاق منهم، ولكن الإجماع لا يرتقي إلى درجة الاحتجاج إلا إذا صدر من مجتهدي أمة النبي صلى الله عليه وسلم جميعا في عصر من العصور، وأهل المدينة ليسوا كل الأمة بل هم بعض الأمة، وعليه فإن اجتهادهم كاجتهاد غيرهم، والعبرةُ فيه بقوة الدّليل والحجة والبرهان.

وهذا قول الجمهور من فقهاء المالكية العراقيين، منهم: ابن بكير، وأبو يعقوب الرازي، وأبو الحسن بن المنتاب، وأبو العباس الطيالسي، والقاضي أبو الفرج، والقاضي أبو بكر الأبهري، وأبو تمام، وأبو الحسن بن القصار، وأبو بكر الباقلاني، والقاضي عبد الوهاب، ورجحة المحققون من المغاربة منهم الباجي وابن العربي والقاضي عياض وابن بشكوال وغيرهم. قال الإمام ابن القيم رحمه الله: فهو معترك النزال ومحل الجدال، ثم نقل رحمه الله قول القاضي عبد الوهاب في اختلاف الأئمة، ورجح عدم حجيته.

**القول الثاني:** أنه حجة شرعية ومقدم على خبر الآحاد والقياس وإن لم يحرم خلافه، وهذا القول نسبه القاضي عبد الوهاب لأحمد بن المعذل وأبي مصعب والقاضي أبي الحسن عمر بن محمد البغدادي وبه قالت جماعة من المغاربة.

**القول الثالث:** أنه ليس حجة ولكنه مرجح على اجتهاد غيرهم، وهذا

القول نسبه عياض لبعض الشافعية كأبي إسحاق الإسفراييني والمحققين من متأخري المالكية، وهو القول الذي انتصر له ابن رشد الجد ورجحه.

قال الإمام ابن تيمية رحمه الله: قال: ((إذا تعارض في المسألة دليلان كحديثين وقياسين جهل أيهما أرجح وأحدهما يعمل به أهل المدينة ففيه نزاع، فمذهب مالك والشافعي أنه يرجح بعمل أهل المدينة ومذهب أبي حنيفة لا يرجح بعمل أهل المدينة)).

## الخلاصة

يستخلص من البيان السابق في مراتب عمل أهل المدينة ما يأتي:

1 . أن المالكية متفقون على تقسيم مراتب عمل أهل المدينة إلى مرتبتين واتفقوا على حجية الأولى واختلفوا في الثانية.

2 . أنهم اعتبروا العمل المنقول عن الصحابة مما طريقه التوقيف من العمل النقلي وهو في الحجية كالعمل المرفوع إلى النبي ﷺ، وهو أقوى من أخبار الآحاد والأقيسة لأنه عمل مقطوع به فلا يترك لغلبة الظنون.

3 . أن العمل الاجتهادي عند المحققين من المالكية ليس حجة في حد ذاته كالعمل النقلي، وإنما يفيد غلبة الظن مما يساعد على الترجيح في حالة التعارض.

---

**للموضوع هوامش**

# تفاعل الكون والوجود مع ميلاد سيد الأنام

**بقلم أ. خالد يونسي**
مكلف بالدراسات والتلخيص

لا يوجد حدث عرفه التاريخ حظي بتفاعل بيئته ومحيطه كما وقع ذلك لمولد رسول الله عليه الصلاة والسلام، ذلك أنّ مولده ﷺ، لم يكن ميلاد شخص عادي أو مجرد حدث عابر، بل هو انكشاف للسر الذي قام عليه هذا الوجود وتجل للحقيقة الكبرى التي من أجلها قامت السماوات والأرض.

فميلاده ﷺ يمثل لحظة انبعاث النور الذي ظل الكون كلّه ينتظره، ولذلك فهو حدث كوني وناموس من أعظم النواميس التي بني عليها الوجود كلّه.

هذه هي الحقيقة التي لا يمكن إغفالها، لأنها ساطعة سطوع النور المحمدي، وليس أدلّ على ذلك من مدلولات الأحداث التي صاحبت ميلاده الشريف عليه الصلاة والسلام، مما رواه أصحاب السير ونقله المؤرخون ورسخ في حس العالم كلّه على امتداد التاريخ.

فما نقرأه في سيرته العطرة وشمائله الكريمة من نور رأته والدته آمنة بنت وهب وهي تضعه، أو ما حدث لمرضعته حليمة السعدية من عجائب وقعت لها في بادية بني سعد، أو غير ذلك، ما هو في حقيقة الأمر إلا تفاعل كوني كبير مع لحظة الميلاد النورانية التي جعلت شمس محمد ﷺ تشرق على العالم بأسره.

فالكون كلّه ورغم خضوعه المطلق لله عزّ وجلّ. ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾، إلا أنه كان فاقدا لانسجامه الكلي المطلق في خضوعه لله تعالى، هذا الفقدان يتمثل في تمرّد الإنسان الذي هو سيد الكون وخليفة الأرض في الأرض على أمر الله تعالى ودينه الحق.

ذلك أن ميلاد البني عليه الصلاة والسلام كان في زمن بلغ فيه الشرك ذروته،

وعمّ الفساد ربوع الأرض وأرجاءها، وما هذا الشرك المستشري وهذا الفساد المنتشر إلا خروجا عن الفطرة التي فطر الله عليها الكون والوجود، وهو ما لم تطقه السماوات والأرض، فلا جرم أن كان الكون كلّه ينتظر ميلاد الرجل الذي يعيد له انسجامه المطلق في خضوعه لله، بأن يهدي البشرية إلى الطريق الحق ويعود بالإنسان إلى الصراط المستقيم.

ولذلك ما وقع من أحداث صاحبت ميلاد النبي عليه الصلاة والسلام هي في الحقيقة تفاعل الكون وفرحه بميلاد رسول الله ﷺ، هذا التفاعل الذي يظهر لنا الكون في حقيقته الخفية عن العالم الظاهري، ويكشف لنا أسراره وقوانينه التي تفوق قدراتنا البشرية، والتي ما كنا لنعرفها لولا بزوغ النور المحمدي ليلة الميلاد. والأجدروالأليق بالبشرية اليوم أن تتفاعل وتظل متفاعلة مع حدث الميلاد المحمدي، لتستمد من قبسات أنواره وتستلهم من فيوض أسراره ما هو جدير بأن يمنحها الحياة الطيبة والسعادة الأبدية في المعاش والمعاد.

وسأبين في هذه النفحات كيف تفاعل الكون مع لحظة الميلاد، وكيف سرى هذا التفاعل إلى الإنسان منذ المولد إلى يومنا الناس هذا، مرورًا بأهم المحطات في تاريخ الإسلام والجزائر، وانتهاء إلى واقعنا المعيش، وما نصبوا إليه من غد واعد إن شاء الله تعالى.

## أولا: تفاعل الكون مع ميلاده ﷺ منذ بداية الخلق:

إن المتأمل في النصوص الشرعية الواردة في عظيم قدر النبي ﷺ ومكانته الرفيعة عند الله ﷻ، يدرك أنّ ميلاده عليه الصلاة والسلام هو أصل ومغزى خلق هذا الكون، وأنّ هذا الوجود ما وجد إلا لاستقبال أشرف موجود بعد الموجد الله ﷻ.

فإذا كانت الغاية من خلق الإنسان هي عبادة الله رب الإنسان، ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ فإن محمدًا ﷺ ولد وبعث ليعلم الناس معنى هذه العبادة وكيفياتها الصحيحة ﴿وما أتاكم الرسم فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾. فتحقيق هذه الغاية مرتبط بميلاد من

يفعلها في واقع الناس، وكل الرسالات التي سبقت رسالته إنما كانت تمهيدا له، وكل الكتب السوالف كانت مرهونة بما قبل زمانه، حتى إذا جاء نوره المهيمن انضوت جميعها تحت لوائه، «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ مُوسَى عليه السلام كَانَ حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي**».

وأخرج أحمد والبزار والطبراني والحاكم والبيهقي عن العرباض بن سارية. أن رسول الله ﷺ قال: «**إني عبد الله وخاتم النبيين، وإن آدم لمجدل في طينته، وسأخبركم عن ذلك، إني دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى، ورؤيا أمي التي رأت، وكذلك أمهات الأنبياء يرين**». قال الحافظ ابن حجر: صححه ابن حبان والحاكم.

فلحظة خلق الكون كانت بداية السير إليه ﷺ، ولحظة تكليف الأنبياء كانت تمهيدا لرسالته ﷺ، وحقيقة أنه خاتم الأنبياء وإليه منتهى الرسالات كانت قائمة لحظة خلق آدم الذي سيكون نبيا وسينجب الأنبياء.

وإذا كان آدم عليه السلام أعطي صفة الخليفة بمجرد خلقه وقبل أن يمارسها، باعتبار ما يؤول إليه أمره ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة﴾، فإن النبي ﷺ كذلك اقترن ميلاده بقرار بعثته والتي ستكون خاتمة النبوات، وتكون كل النبوات مقدمات لها، لندرك بذلك أنّ أمر النبوة في أصلها إنما يتمثل في نبوة سيدنا محمد ﷺ حقيقة، وأنّ صدور القرار الإلهي بها إنما هو في الواقع يمثل لحظة ميلاد سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، ليجيء بعد ذلك التفعيل العملي في موعده المقدّر بحكمة الله ﷻ، وفق الترتيب الذي اختاره الله ﷻ، وهو ما يعبر عنه النبي ﷺ لما سئل: **يَا رَسُولَ اللَّهِ مَتَى وَجَبَتْ لَكَ النُّبُوَّةُ؟ قَالَ: «وَآدَمُ بَيْنَ الرُّوحِ وَالجَسَدِ»**.

وما يزيد هذا الأمر وضوحا، أن الله تعالى عندما تحدث عن الأنبياء بدأ به عليه الصلاة السلام في قوله ﷻ: «وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا» ، فجعل الترتيب غير منضبط بتواريخ بعثة الأنبياء، بل بدأ بنبيه محمد عليه الصلاة والسلام بداية

تشريف وتنويه بمكانته العظيمة التي تعبّر عن الحقيقة الكونية، وهي أن نبوته ﷺ أصل جميع النبوات ومنتهاها، وأنّ ميلاد الأنبياء في الحقيقة إنما هو بميلاد مهامهم ورسالاتهم التي أنيطت بهم، وأنّ أوّلهم ميلادا هو سيدنا محمد ﷺ باعتبار أنّ رسالته هي أصل الرسالات وأمها.

ولترسيخ هذه الحقيقة الكونية أخذ الله ميثاق الأنبياء إن هم أدركوا محمدًا ﷺ أن يؤمنوا به ويتبعوه وينصروه، قال تعالى: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال آقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين﴾ وهو ما تجلى واضحا ليلة الإسراء والمعراج عندما أمهم في الصلاة في بيت المقدس.

إن هذا الميثاق الذي أخذه الله ﷻ عن الأنبياء جميعا هو ترسيخ للتفاعل الكوني العجيب مع لحظة الميلاد الرسالي لمحمد ﷺ قبل لحظة الميلاد البشري، وبمقتضى رسوخ هذا التفاعل واستقرار هذه الحقيقة دعا الخليل إبراهيم والذبيح إسماعيل عليها السلام ربهما بعد أن رفعا بنيان الكعبة: ﴿ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك انت العزيز الحكيم﴾، وهو دعاء في زمن شريف، بعد الانتهاء من طاعة عظية وهي بناء الكعبة، وفي مكان له حرمته وقداسته، فكانت النتيجة أن استجاب الله دعاءهما، ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾.

حتى إذا بعث أخر نبي قبل بعثته ﷺ وهو سيدنا عيسى u، ذكر القرآن الكريم أنه أرسل إلى بني إسرائيل ليكون مبشرا بمحمد ﷺ مصدقا لمن قبله في تلك البشارة، ﴿يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾.

فجاءت بشارة عيسى عليه السلام به ﷺ تصديقا لتوراة موسى عليه السلام ليبين الله ﷻ أن الرسالات السابقة كلها تفاعل مع لحظة ميلاده الرسالي واستعداد للحظة ميلاده البشري عليه الصلاة والسلام.

## ثانيا: تفاعل بيئته ومحيطه مع مولده ﷺ:

عندما نقرأ السيرة النبوية الشريفة تستوقفنا فصول مولده عليه الصلاة والسلام، وهي فصول ممتعة لا يكاد يملّ قارئها أو سامعها مهما كرّر ذلك، والسرّ في هذه المتعة أنها تفاعل مع حدث الميلاد الشريف، تفاعل بمقتضى تفاعل البيئة التي ولد فيها رسول الله عليه الصلاة والسلام، وتجاوب محيطه القريب والمباشر مع هذه الوقائع والملابسات.

فأوّل مظاهر هذا التفاعل ما وقع لأمه آمنة بنت وهب، حيث رأت نوره عليه الصلاة يضيء ليلة ميلاده، حتى جعلها ترى قصور الشام.

أخرج أبو نعيم عن عطاء بن يسار عن أم سلمة عن آمنة: قالت: لقد رأيت ليلة وضعته نورا أضاءت له قصور الشام حتى رأيتها.

وتفسير هذا النور كما قال ابن رجب: (وخروج هذا النور عند وضعه، هو إشارة إلى ما يجيء به من النور الذي اهتدى به أهل الأرض، وزالت به ظلمة الشرك. قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ. يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ﴾. وأما إضاءة قصور بصرى بالنور الذي خرج معه فهو إشارة إلى ما خص الشام من نور نبوته، فإنها دار ملكه- كما ذكر كعب: أن في الكتب السالفة: محمد رسول الله ﷺ مولده بمكة ومهاجره بيثرب وملكه بالشام- فمن مكة بدت نبوة نبينا عليه الصلاة والسلام-، وإلى الشام انتهى ملكه، ولهذا أسرى به ﷺ إلى الشام، إلى بيت المقدس، كما هاجر قبله إبراهيم- عليه السلام- إلى الشام، وبها ينزل عيسى ابن مريم عليه السلام، وهي أرض المحشر والمنشر. وأخرج أحمد وأبو داود وابن حبان والحاكم في صحيحهما عن النبي ﷺ أنه قال: «**عليكم بالشام، فإنها خيرة الله من أرضه، يجتبى إليها خيرته من عباده**».

ثمّ إنّ أمه آمنة ذكرت أن حملها به لم يكن عاديا، وأنها لم تجد ما يجده النساء الحوامل، وأنها سمعت هاتفا يخبرها

بحقيقة مولودها الذي يختلف تماما عن سائر المواليد، قال ابن إسحاق: فكانت آمنة بنت وهب أم رسول الله ﷺ تحدث أنها أتيت حين حملت محمدا ﷺ فقيل لها: إنك قد حملت بسيد هذه الأمة، فإذا وقع إلى الأرض فقولي:

أعيذه بالواحد... من شر كل حاسد.

وهو ما جعل جده عبد المطلب يفرح به فرحا عظيما ويدخل به الكعبة داعيا الله تعالى له بالخيرويختارله اسم محمد ويتنبأ به بالشأن العظيم، وهذا من تفاعل جده ﷺ وهونتيجة التفاعل الكوني المصاحب لميلاده عليه الصلاة والسلام والذي أبهر والدته آمنة بنت وهب.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَلَمَّا وَضَعَتْهُ أُمُّهُ ﷺ ، أَرْسَلَتْ إِلَى جَدِّهِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ: أَنَّهُ قَدْ وُلِدَ لَكَ غُلَامٌ، فَأْتِهِ فَانْظُرْ إِلَيْهِ، فَأَتَاهُ فَنَظَرَ إِلَيْهِ، وَحَدَّثَتْهُ بِمَا رَأَتْ حِينَ حَمَلَتْ بِهِ، وَمَا قِيلَ لَهَا فِيهِ، وَمَا أُمِرَتْ بِهِ أَنْ تُسَمِّيَهُ.

فَيَزْعُمُونَ أَنَّ عَبْدَ الْمُطَّلِبِ أَخَذَهُ، فَدَخَلَ بِهِ الْكَعْبَةَ، فَقَامَ يَدْعُو اللَّهَ، وَيَشْكُرُ لَهُ مَا أَعْطَاهُ، ثُمَّ خَرَجَ بِهِ إِلَى أُمِّهِ فَدَفَعَهُ إِلَيْهَا

واستمر التفاعل الكبير ساريا في كل تفاصيل البيئة التي أنجبت فيها أمنة سيدنا محمدًا ﷺ ، ليمتد إلى مرضعته حليمة السعدية ودارها والبادية التي تسكنها.

قال ابن هشام: كَانَتْ حَلِيمَةُ بِنْتُ أَبِي ذُؤَيْبٍ السَّعْدِيَّةُ. أُمَّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الَّتِي أَرْضَعَتْهُ، تُحَدِّثُ: أَنَّهَا خَرَجَتْ مِنْ بَلَدِهَا مَعَ زَوْجِهَا، وَابْنٍ لَهَا صَغِيرٍ تُرْضِعُهُ فِي نِسْوَةٍ مِنْ بَنِي سَعْدِ بن بَكْرٍ، تَلْتَمِسُ الرُّضَعَاءَ، قَالَتْ: وَذَلِكَ فِي سَنَةٍ شَهْبَاءَ، لَمْ تُبْقِ لَنَا شَيْئًا. قَالَتْ: فَخَرَجَتْ عَلَى أَتَانٍ لِي قَمْرَاءَ، مَعَنَا شَارِفٌ لَنَا، وَاللهِ مَا نبض بِقَطْرَةٍ، وَمَا نَنَامُ لَيْلَنَا أَجْمَعَ مِنْ صَبِيِّنَا الَّذِي مَعَنَا، مِنْ بُكَائِهِ مِنْ الْجَوْعِ، مَا فِي ثَدْيَيَّ مَا يُغْنِيهِ، وَمَا فِي شَارِفِنَا مَا يُغَذِّيهِ- قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَيُقَالُ: يُغَذِّيهِ - وَلَكِنَّا كُنَّا نَرْجُو الْغَيْثَ وَالْفَرَجَ فَخَرَجْتُ عَلَى أَتَانِي تِلْكَ فَلَقَدْ أَدَمْتُ بِالرَّكْبِ حَتَّى شَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ ضَعْفًا وَعَجَفًا، حَتَّى قَدِمْنَا مَكَّةَ نَلْتَمِسُ الرُّضَعَاءَ، فَمَا مِنَّا امْرَأَةٌ إِلَّا وَقَدْ عُرِضَ عَلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ

فَتَأْبَاهُ، إِذَا قِيلَ لَهَا إِنَّهُ يَتِيمٌ، وَذَلِكَ أَنَّا إِنَّمَا كُنَّا نَرْجُو الْمَعْرُوفَ مِنْ أَبِي الصَّبِيِّ، فَكُنَّا نَقُولُ: يَتِيمٌ! وَمَا عَسَى أَنْ تَصْنَعَ أُمُّهُ وَجَدُّهُ! فَكُنَّا نَكْرَهُهُ لِذَلِكَ، فَمَا بَقِيَتْ امْرَأَةٌ قَدِمَتْ مَعِي إِلَّا أَخَذَتْ رَضِيعًا غَيْرِي، فَلَمَّا أَجْمَعْنَا الِانْطِلَاقَ قُلْتُ لِصَاحِبِي: وَاَللَّهِ إِنِّي لَأَكْرَهُ أَنْ أَرْجِعَ مِنْ بَيْنِ صَوَاحِبِي وَلَمْ آخُذْ رَضِيعًا، وَاَللَّهِ لَأَذْهَبَنَّ إِلَى ذَلِكَ الْيَتِيمِ فَلَآخُذَنَّهُ، قَالَ: لَا عَلَيْكِ أَنْ تَفْعَلِي، عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ لَنَا فِيهِ بَرَكَةً. قَالَتْ: فَذَهَبْتُ إِلَيْهِ فَأَخَذْتُهُ، وَمَا حَمَلَنِي عَلَى أَخْذِهِ إِلَّا أَنِّي لَمْ أَجِدْ غَيْرَهُ. قَالَتْ: فَلَمَّا أَخَذْتُهُ، رَجَعْتُ بِهِ إِلَى رَحْلِي، فَلَمَّا وَضَعْتُهُ فِي حِجْرِي أَقْبَلَ عَلَيْهِ ثَدْيَايَ بِمَا شَاءَ مِنْ لَبَنٍ، فَشَرِبَ حَتَّى رَوِيَ، وَشَرِبَ مَعَهُ أَخُوهُ حَتَّى رَوِيَ، ثُمَّ نَامَا، وَمَا كُنَّا نَنَامُ مَعَهُ قَبْلَ ذَلِكَ، وبلغ الأمر عند حليمة مرضعته ﷺ أن انسجم وتناغم معها في تفاعلها هذا بمولد النبي ﷺ كل شيء له علاقة بها وهي تضم إليها رسول الله ﷺ لترضعه، حتى حمارها الذي تركبه، نالته بركات سيدنا محمد ﷺ فتفاعل على غير عادته وهو يحمل المولود المبارك الجديد، قال ابن هشام: قَالَتْ: ثُمَّ خَرَجْنَا وَرَكِبْتُ (أَنَا) أَتَانِي، وَحَمَلْتُهُ عَلَيْهَا معى، فو الله لَقَطَعَتْ بِالرَّكْبِ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا شَيْءٌ مِنْ حُمُرِهِمْ، حَتَّى إِنَّ صَوَاحِبِي لِيَقُلْنَ لِي: يَا بنة أَبِي ذُؤَيْبٍ، وَيْحَكِ! ارْبَعِي عَلَيْنَا، أَلَيْسَتْ هَذِهِ أَتَانَكِ الَّتِي كُنْتِ خَرَجْتِ عَلَيْهَا؟ فَأَقُولُ لَهُنَّ: بَلَى وَاَللَّهِ، إِنَّهَا لَهِيَ هِيَ، فَيَقُلْنَ: وَاَللَّهِ إِنَّ لَهَا لَشَأْنً.

وهذه شاة حليمة النحيفة التي لم تكن تذر لهم اللبن إلى قليلا، أصبحت شاة غزيرة المحلب وفيرة الإنتاج وأقدر على إشباع أهل ذلك البيت، وهذا من تفاعلها هي كذلك بمولد الرحمة المهداة عليه الصلاة والسلام، قال ابن هشام: وَقَامَ زَوْجِي إِلَى شَارِفِنَا تِلْكَ، فَإِذَا إِنَّهَا لَحَافِلٌ، فَحَلَبَ مِنْهَا مَا شَرِبَ، وَشَرِبْتُ مَعَهُ حَتَّى انْتَهَيْنَا رِيًّا وَشِبَعًا، فَبِتْنَا بِخَيْرِ لَيْلَةٍ. قَالَتْ: ثُمَّ قَدِمْنَا مَنَازِلَنَا مِنْ بِلَادِ بَنِي سَعْدٍ وَمَا أَعْلَمُ أَرْضًا مِنْ أَرْضِ اللَّهِ أَجْدَبَ مِنْهَا، فَكَانَتْ غَنَمِي تَرُوحُ عَلَيَّ حِينَ قَدِمْنَا بِهِ مَعَنَا شِبَاعًا لُبَّنًا، فَنَحْلُبُ وَنَشْرَبُ، وَمَا يَحْلُبُ إِنْسَانٌ قَطْرَةَ لَبَنٍ، وَلَا يَجِدُهَا فِي ضَرْعٍ، حَتَّى كَانَ الْحَاضِرُونَ مِنْ قَوْمِنَا يَقُولُونَ لِرُعْيَانِهِمْ: وَيْلَكُمْ اسْرَحُوا

حَيْثُ يَسْرَحُ رَاعِي بِنْتِ أَبِي ذُؤَيْبٍ، فَتَرُوحُ أَغْنَامُهُمْ جِيَاعًا مَا تَبِضُّ بِقَطْرَةِ لَبَنٍ، وَتَرُوحُ غَنَمِي شِبَاعًا لُبَّنًا.

وهكذا تفاعل بيت حليمة كله مع هذا الميلاد المبارك ببركة صاحبه عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام، قالت حليمة فيما يرويه ابن هشام: فَلَمْ نَزَلْ نَتَعَرَّفُ مِنْ اللَّهِ الزِّيَادَةَ وَالْخَيْرَ حَتَّى مَضَتْ سَنَتَاهُ وَفَصَلْتُهُ، وَكَانَ يَشِبُّ شَبَابًا لَا يَشِبُّهُ الْغِلْمَانُ، فَلَمْ يَبْلُغْ سَنَتَيْهِ حَتَّى كَانَ غُلَامًا جَفْرًا. قَالَتْ: فَقَدِمْنَا بِهِ عَلَى أُمِّهِ وَنَحْنُ أَحْرَصُ شَيْءٍ عَلَى مُكْثِهِ فِينَا، لِمَا كُنَّا نَرَى مِنْ بَرَكَتِهِ. فَكَلَّمْنَا أُمَّهُ وَقُلْتُ لَهَا: لَوْ تَرَكْتِ بُنَيَّ عِنْدِي حَتَّى يَغْلُظَ، فَإِنِّي أَخْشَى عَلَيْهِ وَبَأَ مَكَّةَ، قَالَتْ: فَلَمْ نَزَلْ بِهَا حَتَّى رَدَّتْهُ مَعَنَا.

ولعلّ أفضل ما يبرز لنا ذلكم التفاعل المطلق والكلي لبيت حليمة وما فيه، ما عبر به زوجها حين قال لها: وَاَللَّهِ يَا حَلِيمَةُ، لَقَدْ أَخَذْتُ نَسَمَةً مُبَارَكَةً، قَالَتْ: فَقُلْتُ: وَاَللَّهِ إنِّي لَأَرْجُو ذَلِكَ.

فهذا الفرح والسرور بسبب الخيرات والبركات التي حلّت حيثما حلّ المولود الجديد، في بيت والدته أو بادية مرضعته، إنما هو تفاعل ايجابي وقع من الإنسان ومن الحيوان، ومن كل تفاصيل تلك البيئة التي احتضنت سرّ هذا الوجود وإكسير هذه الحياة، والذي أحبته الأرض والسماوات.

وبالمقابل حدث في البيئة التي ولد فيها عليه الصلاة والسلام تفاعل آخر، إنه تفاعل ولكنه بانطباعات سلبية وردود فعل شنيعة، تمثلت في مواقف أصحاب السلطة الدينية في ذلك الزمن من أهل الكتاب والمنجمين.

قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ: وَكَانَتْ الْأَحْبَارُ مِنْ يَهُودَ، وَالرُّهْبَانُ مِنْ النَّصَارَى، وَالْكُهَّانُ مِنْ الْعَرَبِ، قَدْ تَحَدَّثُوا بِأَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ مَبْعَثِهِ، لَمَّا تَقَارَبَ مِنْ زَمَانِهِ. أَمَّا الْأَحْبَارُ مِنْ يَهُودَ، وَالرُّهْبَانُ مِنْ النَّصَارَى، فَعَمَّا وَجَدُوا فِي كُتُبِهِمْ مِنْ صِفَتِهِ وَصِفَةِ زَمَانِهِ، وَمَا كَانَ مِنْ عَهْدِ أَنْبِيَائِهِمْ إلَيْهِمْ فِيهِ. وَأَمَّا الْكُهَّانُ مِنْ الْعَرَبِ فَأَتَتْهُمْ بِهِ الشَّيَاطِينُ مِنْ الْجِنِّ فِيمَا تَسْتَرِقُ مِنْ السَّمْعِ، إذْ كَانَتْ وَهِيَ لَا تُحْجَبُ عَنْ ذَلِكَ بِالْقَذْفِ بِالنُّجُومِ. وَكَانَ الْكَاهِنُ وَالْكَاهِنَةُ

لَا يَزَالُ يَقَعُ مِنْهُمَا ذِكْرُ بَعْضِ أُمُورِهِ، لَا تُلْقِي الْعَرَبُ لِذَلِكَ فِيهِ بَالاً، حَتَّى بَعَثَهُ اللَّهُ تَعَالَى، وَوَقَعَتْ تِلْكَ الْأُمُورُ الَّتِي كَانُوا يَذْكُرُونَ، فَعَرَفُوهَا.

هؤلاء الأحبار والرهبان والكهان رأوا تفاعل الكون مع ميلاده عليه الصلاة والسلام، أما اليهود والنصارى فمما قرأوه في كتبهم وأمّا الكهان فبما أخبرت به الجن والشياطين وقد كانوا يسترقون السمع، فشهدوا تفاعل كل شيء مع مولده الشريف، ولكنهم لم ينسجموا مع هذا التفاعل الكوني الراسخ، لفساد فطرتهم وبعدهم عن التجرد للحقيقة كما هي، حيث استبدت بهم أهواؤهم وأعماهم تعصبهم.

أما أهل الكتاب، خاصة اليهود، فاعتبروا ذلك مصيبة وصاحوا بأعلى أصواتهم وتشاءموا بالخبر السعيد، روى ابْنُ إِسْحَاقَ عَنْ حَسّانَ بن ثَابِتٍ، قَالَ: وَاَللهِ إنّي لَغُلَامٌ يَفَعَةٌ ابْنُ سَبْعِ سِنِينَ أَوْ ثَمَانٍ أَعْقِلُ كُلّ مَا سَمِعْت، إذْ سَمِعْت يَهُودِيّا يَصْرُخُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ عَلَى أَطَمَةٍ بِيَثْرِبَ يَا مَعْشَرَ يَهُودَ حَتّى إذَا اجْتَمَعُوا إلَيْهِ قَالُوا لَهُ وَيْلَك مَا لَك؟ قَالَ طَلَعَ اللّيْلَةَ نَجْمُ أَحْمَدَ الّذِي وُلِدَ بِهِ.

وأما الكهان فقد فزعوا لرميهم بالنجوم وأدركوا أن المولود الجديد سيبدّد نوره ظلامهم، وأنّ مقاعدهم للسمع قد آن موعد نهايتها. ﴿وإنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الان يجد له شهابا رصدا﴾.

قال ابن إسحاق: فَلَمَّا تَقَارَبَ أَمْرُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَحَضَرَ مَبْعَثُهُ، حُجِبَتْ الشَّيَاطِينُ عَنْ السَّمْعِ، وَحِيلَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْمَقَاعِدِ الَّتِي كَانَتْ تَقْعُدُ لِاسْتِرَاقِ السَّمْعِ فِيهَا، فَرُمُوا بِالنُّجُومِ، فَعَرَفَتْ الْجِنُّ أَنَّ ذَلِكَ لِأَمْرٍ حَدَثَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ فِي الْعِبَادِ.

وقَالَ ابْنُ إسْحَاقَ: وَحَدَّثَنِي يَعْقُوبُ بن عُتْبَةَ بن الْمُغِيرَةِ بن الأَخْنَسِ أَنَّهُ حَدَّثَ أَنَّ أَوَّلَ الْعَرَبِ فَزِعَ لِلرَّمْيِ بِالنُّجُومِ حَيْنَ رُمِيَ بِهَا، هَذَا الْحَيُّ مِنْ ثَقِيفٍ، وَأَنَّهُمْ جَاءُوا إلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ عَمْرُو بن أُمَيَّةَ، أَحَدُ بَنِي عِلَاجٍ- قَالَ: وَكَانَ أَدْهَى الْعَرَبِ وَأَنْكَرَهَا رَأْيًا- فَقَالُوا لَهُ: يَا عَمْرُو: أَلَمْ تَرَ مَا حَدَثَ فِي السَّمَاءِ مِنْ الْقَذْفِ بِهَذِهِ النُّجُومِ؟ قَالَ: بَلَى، فَانْظُرُوا،

فَإِنْ كَانَتْ مَعَالِمَ النُّجُومِ الَّتِي يُهْتَدَى بِهَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، وَتُعْرَفُ بِهَا الْأَنْوَاءُ مِنْ الصَّيْفِ وَالشِّتَاءِ، لِمَا يُصْلِحُ النَّاسَ فِي مَعَايِشِهِمْ، هِيَ الَّتِي يُرْمَى بِهَا، فَهُوَ وَاَللَّهِ طَيُّ الدُّنْيَا، وَهَلَاكُ هَذَا الْخَلْقِ الَّذِي فِيهَا، وَإِنْ كَانَتْ نُجُومًا غَيْرَهَا، وَهِيَ ثَابِتَةٌ عَلَى حَالِهَا، فَهَذَا لِأَمْرٍ أَرَادَ اللَّهُ بِهِ هَذَا الْخَلْق.

## ثالثا: تفاعل الإنسان عبر التاريخ مع مولده عليه الصلاة والسلام:

الإنسان أول من يتفاعل مع حدث مولده ﷺ، لما حباه به المولى عليه الصلاة والسلام من عقل وعاطفة وضمير، وهذا ما شهده التاريخ فعلا، بدءا بعصر النبوة إلى يوم الناس هذا، سوى ما أنكره البعض بدعوى أنه بدعة لم تعرف في القرون الأولى من تاريخ أمة الإسلام.

وهؤلاء الذين رفضوا الاحتفال بمولده عليه الصلاة والسلام، إنما فعلوا ذلك بدعوى أنه ابتداع في الدين ما ليس منه، وما فعلوه إلا من منطلق حب النبي ﷺ والدفاع عن دينه وسنته ولكن بطريقتهم الخاصة وأسلوبهم الذي اختاروه. فأمكن القول إنه تفاعل ولكن بطريقة دفاعية مغايرة.

والحقيقة أنّ التفاعل مع مولده ﷺ والاحتفاء به ليس من باب التعبد أو التشريع، ولكنه تعبير عن الفرحة بالمولد الشريف باستخدام ما تعارف عليه الناس من وسائل وآليات اجتماعية وثقافية في كل بيئة بما يناسب خصوصياتها، واستغلال لهذا الحدث في تقوية العلاقة برسول الله ﷺ، وبناء المجتمع على وفق هدي من نحتفل بذكرى مولده الشريف.

وسأبرز مظاهر هذا التفاعل في أهم محطات تاريخ الاسلام عامة والجزائر خاصة:

### أ. في تاريخ الإسلام:

يعتبر النبي عليه الصلاة والسلام أبرز المتفاعلين بذكرى مولده الشريف انسجاما مع هذه الحقيقة الكونية التي سبق أن ذكرناها وتأكيدا للحق الذي قامت عليه الأرض والسماوات، فقد كان عليه الصلاة والسلام يصوم يوم الاثنين ويبين علة ذلك فيخبر بأنه اليوم

الذي ولد فيه، واليوم الذي أنزل عليه فيه، فهو بالنسبة إليه ﷺ يوم ميلاده البشري ويوم ميلاده الرسالي الذي سبق تحقّقه كونيا عندما تعلقت إرادة الله به، ثم بعد ذلك تحقيق عمليا بنزول القرآن الكريم وتلقي أول كلمات تصل الأرض بالسماء، أخرج مسلم في صحيحه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قَالَ: وَسُئِلَ - أي رسول الله ﷺ - عَنْ صَوْمِ يَوْمِ الِاثْنَيْنِ؟ فقَالَ: «ذَاكَ يَوْمٌ وُلِدْتُ فِيهِ، وَيَوْمٌ بُعِثْتُ - أَوْ أُنْزِلَ عَلَيَّ فِيهِ -.

واستمر الأمر كذلك، يتفاعل الصحابة الكرام ضمنيا بذكرى مولده الشريف، ولا يقصرون تفاعلهم على هذه الذكرى الغالية، لأنّ لهم مع رسول الله ﷺ في كل شبر من مكة المكرمة أو المدينة المنورة ذكرى يتفاعلون معها وتزيدهم حبا لرسول الله عليه الصلاة والسلام وتحلقا به.

ولعل الصحابة الكرام رضوان الله عليهم استغنوا بكل الذكريات التي كانت شاخصة في حياتهم أيام رسول الله ﷺ، ثم شغلوا بتبليغ رسالته وهديه الكريم للناس، وكل ذلك كان تفاعلا منهم بمولده ﷺ لأنّ كل تفاصيل رسالته إنما هي أصداء مولده الرسالي الذي قدّر له أن يتحقق عمليا بالمولد البشري لسيدنا رسول الله ﷺ.

ومن أعجب صور تفاعل الإنسان بمولده ﷺ، ما وقع لعمه أبي لهب حين بشرته جاريته ثويبة بمولد رسول الله ﷺ، فمن شدة فرحه اعتقها، فكانت نتيجة هذا التفاعل أن خفف عنه العذاب في النار وهو الذي توعده الله به في قوله تعالى: ﴿سيصلى نارًا ذات لهب﴾.

روى البخاري في صحيحه: قَالَ عُرْوَةُ: وثُوَيْبَةُ مَوْلاَةٌ لِأَبِي لَهَبٍ: كَانَ أَبُو لَهَبٍ أَعْتَقَهَا، فَأَرْضَعَتِ النَّبِيَّ ﷺ، فَلَمَّا مَاتَ أَبُو لَهَبٍ أُرِيَهُ بَعْضُ أَهْلِهِ بِشَرِّ حِيبَةٍ، قَالَ لَهُ: مَاذَا لَقِيتَ؟ قَالَ أَبُو لَهَبٍ: لَمْ أَلْقَ بَعْدَكُمْ غَيْرَ أَنِّي سُقِيتُ فِي هَذِهِ بِعَتَاقَتِي ثُوَيْبَةَ.

وقد فصل السهيلي هذه الحقيقة قائلا: وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ أَنّ بَعْضَ أَهْلِهِ رَآهُ فِي الْمَنَامِ فِي شَرّ رَحِيبَةٍ وَهِيَ الْحَالَةُ فَقَالَ مَا لَقِيت بَعْدَكُمْ يَعْنِي: رَاحَةً غَيْرَ أَنّي

سُقِيت فِي مِثْلِ هَذِهِ بِعِتْقِي ثُوَيْبَةَ، هَكَذَا فِي رِوَايَةِ الْأُصَيْلِيّ عَنْ أَبِي زَيْدٍ وَفِي رِوَايَةِ غَيْرِهِ قَالَ مَا لَقِيت بَعْدَكُمْ رَاحَةً غَيْرَ أَنّي سُقِيت فِي مِثْلِ هَذِهِ وَأَشَارَ إلَى النّقْرَةِ بَيْنَ السّبّابَةِ وَالْإِبْهَامِ بِعِتْقِي ثُوَيْبَةَ، وَفِي غَيْرِ الْبُخَارِيّ أَنّ الّذِي رَآهُ مِنْ أَهْلِهِ هُوَ أَخُوهُ الْعَبّاسُ قَالَ مَكَثْت حَوْلاً بَعْدَ مَوْتِ أَبِي لَهَبٍ لَا أَرَاهُ فِي نَوْمٍ ثُمّ رَأَيْته فِي شَرّ حَالٍ فَقَالَ مَا لَقِيت بَعْدَكُمْ رَاحَةً إلّا أَنّ الْعَذَابَ يُخَفّفُ عَنّي كُلّ يَوْمِ اثْنَيْنِ وَذَلِكَ أَنّ رَسُولَ اللهِ ﷺ وُلِدَ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ وَكَانَتْ ثُوَيْبَةُ قَدْ بَشّرَتْهُ بِمَوْلِدِهِ فَقَالَتْ لَهُ أَشَعَرْت أَنّ آمِنَةَ وَلَدَتْ غُلَامًا لِأَخِيك عَبْدِ اللهِ؟ فَقُلْ لَهَا: اذْهَبِي، فَأَنْتِ حُرّةٌ فَنَفَعَهُ ذَلِكَ وَفِي النّارِ كَمَا نَفَعَ أَخَاهُ أَبَا طَالِبٍ ذَبّهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَهُوَ أَهْوَنُ أَهْلِ النّارِ عَذَابًا.

وَقَدْ تَقَدّمَ فِي بَابِ أَبِي طَالِبٍ أَنّ هَذَا النّفْعَ إنّمَا هُوَ نُقْصَانٌ مِنْ الْعَذَابِ وَإِلّا فَعَمَلُ الْكَافِرِ كُلّهُ مُحْبَطٌ بِلَا خِلَافٍ أَيْ لَا يَجِدُهُ فِي مِيزَانِهِ وَلَا يَدْخُلُ بِهِ جَنّةً.

### ب. في تاريخ الجزائر:

لا يزال التفاعل مع مولده ﷺ مستقرا في روع الإنسان المسلم حتى عصرنا هذا، فقد عمد كبار العلماء والمصلحين إلى اغتنام ذكرى مولده ﷺ فيما يعود على الأمة بالخير، ونظروا إلى الاحتفال بذكرى المولد الشريف نظرة إيجابية تبرز صورة الإسلام الوسطي المعتدل.

ولعل من أبرز هؤلاء العلماء المصلحين إمام الجزائر ورائد نهضتها العلامة الشيخ عبد الحميد بن باديس رحمه الله، فقد عرف عنه حرصه الشديد على إحياء ذكرى المولد النبوي الشريف، بل جعله فرصة وفضاء لرسم أبرز ملامح خطته الإصلاحية في الجزائر.

فقصيدة: «شعب الجزائر مسلم» التي تعتبر ملحمة خالدة من ملاحم الجزائر، ألقاها سنة 1937م ليلة الاحتفال بذكرى المولد النبوي الشريف بعد رجوعه من العاصمة الفرنسية باريس حيث حضر اجتماع الحكومة الفرنسية لتقرير مصير قضية الشعب الجزائري، فعاد ابن باديس رحمه الله وهو يحمل كل الإصرار على التمسك بهوية الأمة الجزائرية، وعبر عن ذلك بهذه القصيدة التي اختار لها موعدا ذكرى المولد النبوي الشريف

لإلقائها، لما في ذلك من رمزية التواصل مع الرسالة المحمدية وعراقة الانتماء المحمدي، وأنّ حركته الإصلاحية ما هي إلا امتداد للمؤسس الأوّل ﷺ.

وظل الإمام عبد الحميد بن باديس رحمه الله يحرص على ذكرى المولد النبوي الشريف تحديدًا، لما لها في نفوس المسلمين من مكانة ودلالة على حبهم لنبيهم ﷺ، ولما فيها من خيرات وبركات، إذ بميلاده ﷺ بزغ النور والخير. وفي كل مرّة كان ابن باديس يربط نشاطه وآماله بذكرى المولد الشريف، كان الله يبارك جهوده ويثمّن سعيه ببركة المولد ﷺ.

فقد عمد ابن باديس رحمه الله إلى تأسيس الفرق الرياضية وصبغها بصبغة الجزائر المسلمة، حفاظا على الهوية الوطنية والشخصية الجزائرية الأصيلة، وصبّ كل ذلك في قالب المولد النبوي الشريف.

حدثني الشيخ العلامة الأخضر علواني رحمه الله، وهو من أبرز تلاميذ ابن باديس أن مؤسس الفريق الرياضي لمدينة قسنطينة إنما هو العلامة ابن باديس رحمه الله، كان ذلك سنة 1939م، وأن ابن باديس هو الذي سمّاه: مولودية قسنطينة تبركا بمولد سيد الأنام عليه الصلاة والسلام، لأن التأسيس كان ليلة الاحتفال بذكرى مولده ﷺ.

كما أنّ ابن باديس رحمه الله دعم هذه الفرق الرياضية التي كان يؤسسها بتلاميذه ليجعل منهم رجالاً فاعلين ومتميزين عن الكيان الفرنسي في الجزائر، وليستبقي للجزائر هويتها وشخصيتها، وقد أخبرني العلامة الأخضر علواني رحمه الله أنه كان أوّل حارس مرمى لمولودية قسنطينة وهو لا يزال طالبا عند ابن باديس.

وفي ثورتنا المجيدة، انتصر الجزائريون بعد أن قدموا مليونا ونصف مليون شهيدًا، وكان ذلك ببركة سيدنا رسول الله ﷺ، حيث تم اختيار موعد انطلاق هذه الثورة المباركة ليلة ذكرى مولده عليه الصلاة والسلام والتي صادفت ليلة الإثنين الثاني عشر من ربيع الأنوار، والذي يمثل تاريخ الميلاد النبوي الشريف. قَالَ ابْن إِسْحَاقَ: وُلِدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمَ

الِاثْنَيْنِ، لِاثْنَتَيْ عَشْرَةَ لَيْلَةً خَلَتْ مِنْ شَهْرِ رَبِيعٍ الْأَوَّلِ عَامَ الْفِيلِ.

هذا الثورة المباركة كانت بركة من بركات سيدنا رسول الله ﷺ، وثمرة من ثمار الحركة الإصلاحية التي قام بها الإمام ابن باديس رحمه الله والتي كانت بداياتها مشاورات مع الإمام البشير الإبراهيمي في الروضة الشريفة والجوار الكريم بالمدينة المنورة.

فما قام به الإمام ابن باديس والثوار الأحرار من بعده هو التفاعل بعينه مع مولد رسول الله ﷺ، ولكنه تفاعل واع وإيجابي، تفاعل يبني الوطن شامخا وينشئ الأمة قوية. وهو تفاعل يعبر عن انسجام الجزائريين على غرار المسلمين الأوائل مع الحقيقة الكونية الكبرى المتمثلة في ميلاد السر وبزوغ النور الذي قامت عليه السماوات والأرض.

## رابعا: نحن وذكرى المولد النبوي الشريف:

يختلف المسلمون اليوم في حكم الاحتفال بذكرى المولد النبوي الشريف، هل هو عادة مشروعة أم بدعة ممنوعة؟ وبعبارة أخرى: هل هو من الاتباع أم أنه من الابتداع؟

والخوض في هذه المسألة ليس محل اهتمامنا في هذا الموضع، وإنما نرى أنّ هذا الاختلاف بكل مظاهره حول هذه القضية الجوهرية ما هو إلا ألوان من التفاعل اختلفت في تمظهرها وتعددت في جوانبها، والتقت في حقيقة واحدة، هي أنها تفاعل مع مولده عليه الصلاة والسلام، هذا الحدث الكوني الذي لا يزال يفرض وجوده وتأثيره على الناس في كل زمان ومكان.

ولعل ما يؤكد حجم هذا التفاعل مع المولد النبوي الشريف تمسك كل فريق برأيه، ومحاولة تأصيله والاستدلال عليه، فما هذه الجهود المبذولة إلا تفاعل صريح من ذكرى المولد النبوي الشريف.

وهو تفاعل دعانا إليه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون﴾: « وأي فضل أعظم من نعمة محمد ﷺ الذي امتنّ الله به على عباده فقال: ﴿لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾.

كما أنه تفاعل تعلمناه من نبينا محمد ﷺ الذي كان يتفاعل مع ذكريات

الأحداث العظام، ويدعوا أمته إلى هذا التفاعل الإيجابي البناء، فلما هاجر ﷺ إلى المدينة المنوّرة وجد اليهود يصومون يوم عاشوراء تفاعلا مع ذكرى نجاة موسى عليه السلام، فشاركهم ﷺ تفاعلهم هذا، بل اعتبر نفسه أولى منهم بهذا التفاعل، فصام يوم عاشوراء وأمر بصيامه.

أخرج البخاري عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ المَدِينَةَ وَجَدَ اليَهُودَ يَصُومُونَ عَاشُورَاءَ، فَسُئِلُوا عَنْ ذَلِكَ، فَقَالُوا: هَذَا اليَوْمُ الَّذِي أَظْفَرَ اللَّهُ فِيهِ مُوسَى، وَبَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى فِرْعَوْنَ، وَنَحْنُ نَصُومُهُ تَعْظِيمًا لَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نَحْنُ أَوْلَى بِمُوسَى مِنْكُمْ، ثُمَّ أَمَرَ بِصَوْمِهِ».

والمسلمون جميعا يعلمون أنّ يوم الجمعة هو عيدهم في الدينا والآخرة، وأنّ الله هو الذي جعله كذلك، وجعله أفضل أيام الأسبوع، وخصّه بساعة لا يردّ فيها دعاء، كل ذلك لينشئ في نفوسنا تفاعلا قويا ومستمرا مع الأحداث العظام التي وقعت فيه، والتي لها علاقة مباشرة بأبي البشرية سيدنا آدم عليه السلام وقصة بدأ الخلق والحكمة من خلق الكون والإنسان.

أخرج مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رَسُولُ اللهِ ﷺ قَالَ: «خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ يَوْمُ الْجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ، وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا».

وهذا التفاعل مع ذكرى المولد النبوي الشريف هو من شاكلة تفاعل الناس مع الأحدث والذكريات من خلال المناسبات والأعياد الوطنية والعالمية، حيث يخلّد المعاني والقيم التي ترمز لها هذه الأحداث ويعبّر عنها بالأعياد والمناسبات.

وليس المقصود أبدًا أننا ندخل في الدين ما ليس منه، بل نفعل ذلك بكل فهم ووعي أنها ليست من شعائر الدين، وأنّ الذي يبدعها هو من أساء فهم المراد منها، بأن وقع في حسّه أن لا مجال للحركة في الحياة خارج نطاق الشعائر، فاختصر بذلك المعنى الواسع للحياة وجعله منحصرًا في شعائر الدين وعباداته.

والحقيقة أنّ الدين نفسه يعطي مجالات واسعة للحياة خارج نطاق شعائره ولكن وفق مبادئه وقيمه، وهو ما عناه النبي ﷺ في قوله: «أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ».

وفي هذا يقول الإمام الشافعي رحمه الله: المحدثات من الْأُمُور ضَرْبَان أَحدهمَا مَا أحدث يُخَالف كتابا أَو سنة أَو أثرا أَو إِجْمَاعًا فهَذِهِ الْبِدْعَة الضَّلَالَة وَالثَّانِي مَا أحدث من الْخَيْر لَا خلاف فِيهِ لوَاحِد من هَذَا فهَذِهِ محدثة غير مذمومة وَقَدْ قَالَ عُمَرُ ﷺ فِي قِيَامِ رَمَضَانَ نِعْمَتِ الْبِدْعَةُ هَذِهِ يَعْنِي أَنَّهَا مُحْدَثَةٌ لَمْ تَكُنْ وَإِذَا كَانَتْ فَلَيْسَ فِيهَا رَدٌّ لِمَا مَضَى.

فتفاعلنا وفرحنا وتعبيرنا بوسائل مشروعة عن فرحتنا وحبنا لرسول الله ﷺ مما تلقته أمتنا بالقبول طوال قرون من الزمن.

**الخلاصة:**

مولد النبي عليه الصلاة والسلام في ربيع الأنوار هو مولده البشري، الذي اقتضته حكمة الله تعالى في دنيا البشر، ليكون موعد تجلي المولد الرسالي الذي يعبّر عنه بالأنوار والأسرار، والذي سبق لحظة الميلاد البشري منذ بدء الخليقة.

وهو حدث كوني عظيم تفاعل معه الكون والوجود كلّه، ومن أجله أرسل الله الرسل وأنزل الكتب وشرع الشرائع لتكون مقدمات لنفحاته وممهدات لتعاليمه عليه الصلاة والسلام.

وقد شهد حدث المولد النبوي الشريف فرحة الكون كلّه، وامتلأت الربوع التي احتضنته ببركات المولود الكريم، وكل ذلك تفاعل كوني مع هذا النور الذي بزغ ليبدد ظلام الدنيا الدامس الذي ملأ أرجاء الأرض على فترة من تعاليم السماء.

ولا يزال هذا التفاعل قائما ومستمرا في عالم الإنسان، إلى يوم الناس هذا، وسيظل كذلك، لأنه يمثل انسجام الفطرة البشرية مع الكون كلّه في الانضمام إلى النسق العام الذي أقام الله عليه الوجود وجعله قانون الحياة، والمتمثل في خضوع الكون كله لمكونه والوجود جميعه لموجده.

ولا تزال هذه الأمة بخير ما تفاعلت مع مولد نبيها عليه الصلاة والسلام وانسجمت مع الكون والوجود متناغمة معه وهي تلهج بالصلاة والسلام على من أرسله الله رحمة للعالمين.

والحمد لله رب العالمين

---

**للموضوع هوامش**

# لا تحزن إن الله معنا

## – قراءة في الهجرة النبوية –

**بقلم الدكتور بوعلام جوهري**
مدير الشؤون الدينية والأوقاف لولاية بومرداس

**مقدمـــة:**

من سنن الله في شأن دعوات الأنبياء والمرسلين أن يؤذوا ويُحاربوا وأن يخرجوا من أرضهم من طرف أقوامهم، قال الله تعالى: ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبيء عدوا من المجرمين، وكفى بربك هاديا ونصيرا ﴾ [1].

وقد جاء في السيرة النبوية أن ورقة بن نوفل لما لجأت إليه خديجة رضي الله عنها ومعها زوجها الحائر في أمر ما جرى له في غار حراء قال له مخبرا ومنذرا: **(يا ليتني فيها جذعا ، ليتني أكون حيا حين يخرجك قومك ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أو مخرجيّ هم ؟ قال: نعم ، لم يأت رجل بمثل ما جئت به إلا عُودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا)** [2].

فلقد تهيأ النبي صلى الله عليه وسلم نفسيا لملاقاة الصعاب وتكبّد المتاعب، وبدأ في فجر دعوته لما ضاقت الأحوال ببعض أصحابه يفتح متنفسات لهم أولا ولدعوته ثانيا حين أمرهم ناصحا بالخروج إلى أرض الحبشة حيث حرية المعتقد والعدل في الحكم والملك إشارة إلى أن دعوة الإسلام تنشد هذا الجو وترمق إليه بل وستبنيه وتضمنه وتحميه بعد أعوام عديدة في بيئة يثرب المدينة المنورة تَمدُّنا وتحضّرا وضمانا لحرية المعتقد في جو من العدل والمؤاخاة الإنسانية .

هاجر المسلمون هجرتين مشهورتين إلى الحبشة أرض النجاشي الملك الذي لا يظلم عنده أحد هروبا من القمع وتبليغا للإسلام لقوم لا ينقصهم سوى الإيمان لاستكمال تألقهم الإنساني وبقي كثير من المسلمين بمكة بمعية النبي الرسول إلى عشيرته الأقربين قبل غيرهم ، يعضدونه ويألمون معه ويصبرون معه في شعب أبي

طالب ثلاثة أعوام شاقة تُستنفذ خلالها قوى المسلمين المادية والمعنوية حتى يأتي أحدهم حبوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم من شدة التعذيب يستنصره نصر ربه في حالة تقرب من اليأس والقنوط .

تموت خديجة المؤنسة والساندة ويموت أبو طالب العم الحامي والسند السياسي في القبيلة فيلجأ النبي صلى الله عليه وسلم إلى قبيلة جارة في الطائف يطلب منها اللجوء دون جدوى ثم يظل لسنتين ونصف سنة يتلقى الوفود الآتية إلى مكة في مواسم الحج أو في رحلات التجارة في الشتاء والصيف يترقب ظروفا أحسن تتيح له ولأصحابه نقل مجال الدعوة خارج مكة بل والانتقال إلى بيئة أكثر انفتاحا لفك الخناق عن أفق تبليغ الرسالة وإيصالها إلى الناس العالمين .

إن المدينة المنورة ستحظى بعد الهجرة بمكان العقل في الجسد منه وإليه تعود كل الشبكة العصبية المتحكمة في حركة الجسد وسكونه بالرغم من مركزية القلب في الدورة الدموية الحافظة لحياة الجسم والذي تبقى مكة دينيا وروحيا تمثله في الأمة بل إن الهجرة تعتبر شهادة ميلاد الأمة أضحى بعدها الخطاب الإلهي يعني بالخصوص لجماعة المؤمنين في القرآن المدني وعهدا لتأسيس المدينة الجامعة للاختلافات الدينية والعرقية في دولة مواطنة يتساوى فيها الناس أمام القانون ويتعايشون لحماية ما يؤويهم ويضمن لهم الكرامة كأول نموذج في التاريخ لمفهوم المدينة الكريمة ودولة المواطنة.

إن القراءة المتبصرة في حدث الهجرة النبوية تعتمد على استقراء الأحداث المرتبطة بها للاستفادة المادية والروحية منها بما يناسب بناء الأفكار والسلوك والنظرة إلى الحياة والحضارة لدى كل جيل من أجيال الأمة عبر العصور فالهجرة نبض لا يتوقف في جسد الأمة وعمرها تستلهم منها أسباب بقائها مند الميلاد الأول في يثرب ولذلك اجتمع رأي كبار الصحابة في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه على جعل سنة الهجرة النبوية بداية للتاريخ امة الإسلام وحضارتها كونها مفصلا تاريخيا في عمر

الرسالة المحمدية ونقطة انطلاق حقيقي لعالميتها وتوسعها الكياني وليس الدعوي فحسب.

في حدث الهجرة النبوية عبر ودروس وقراءات حضارية في قمة الأهمية لاستبصار ما نستطيع به مواصلة طريق حياة الأمة نستلهم منها روح التأسيس الأول بما تحويه من إشراقات إلى يوم القيامة على المستوى الفردي والمستوى الجماعي وعلى المستويين الروحي والمادي وعلى مستوى البناء الفكري الإيديولوجي لمفهوم الدولة والأمة والتشريع الاجتماعي والسياسي والثقافي.

سنعمد إلى هذه الإشراقات النبوية في قراءاتنا لحدث الهجرة مقاربين الوقائع دون سردها، ففي كتب السيرة ما يغني القاريء والباحث عن قراءتها بالإطناب في مقالنا هذا، وسنسردها إشراقة بعد إشراقة نستضيء بها لفهم أنفسنا وما حولنا ومركز مهمتنا الحضارية في دنيا الناس وموقعنا في مسؤولية حمل الدين للمجتمع الإنساني وبث قيم الكرامة والتعايش والحرية.

**1 - الإشراقة الأولى:** أهمية التخطيط والإعداد والأخذ بالأسباب:

سبق لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن نوى الهجرة وكان قصده الطائف دون تهيئة الأرضية في قبيلة ثقيف لضمان استقباله والمؤمنين برسالته معتمدا على رصيد حسن الجواروما لأهل مكة وقبيلة قريش عند القوم من حظوة ، حتى أن بعض بساتين الطائف كانت ملكا لوجهاء من قريش .

لكن الهجرة لم تتم وقوبل عليه الصلاة والسلام بالشتم والإيذاء بل وبالإهانة، فرجع من هذه التجربة متعلما لدرس سُنني، وهو ضرورة التخطيط والإعداد بدقة لكل نَقلة في حياة الرسالة وضرورة الأخذ بالأسباب دون إغفال أي تفصيل ، تجلى ذلك في أعمال الرسول صلى الله عليه وسلم طيلة ثلاثة أعوام تحرّى فيها السرية كما كان يفعل في بداية دعوته وهو القائل : (استعينوا على قضاء حوائجكم بالسر والكتمان) أخرجه الطبراني، بدْءً من استقبال وفود الحجيج سرّيًا وعقد بيعتين مع أهل يثرب من

الأوس والخزرج عند العقبة في السنتين الحادية عشر والثانية عشر وإرسال الصحابي الجميل الأنيق البليغ مصعب بن عمير رضي الله عنه سفيرا إلى يثرب لتوسيع دائرة المسلمين فيها وتعليمهم دينهم تهيئة للرأي العام لقدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم وبقية المستضعفين في مكة إلى يثرب مع إلزامهم بعهد وبيعة لحمايته كما يحمون أهلهم وأبناءهم ، إضافة إلى فتح باب الهجرة لمن استطاع وأراد، بغية توسيع المتنفس لهم وتفريغ مكة منهم إيهاما لقريش بتخلصها من صدعهم لها ، يضاف إلى ذلك اختيار رسول الله صلى الله عليه وسلم لمدينة كبيرة متعددة العرقيات والأديان ميزتها أنها بعيدة جغرافيا عن مكة ما جعل زعماء قريش لا يملكون فيها مصالح قد تستثير أهلها ضد رسول الله صلى الله علي وسلم خوفا على مصالحهم مع قبيلة قريش وزعمائها .

بقي رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظر إذن ربه بالهجرة ، لكنه لم يبق منتظرا مكتوف الأيدي دون التخطيط ليوم خروجه وتحديد مسار سفره ، فقد ورد في السيرة أنه اتفق مع أبي بكر رضي الله عنه لعلف ناقتين لسفرهما، واتفق مع عبد الله بن أريقط على الرغم من عدم اعتناقه للإسلام لأن يكون دليلا لهما في الصحراء كونه خبيرا في هذا المجال .

كان اختيار اللجوء إلى غار ثور اختيارا مدروسا مسبقا مع تهيئة كل ظروف نجاح العملية بما تم الاتفاق عليه مع عبد الرحمن بن أبي بكر لرصد أخبار قريش ومن مجيء أسماء ذات النطاقين وهي الحامل في شهرها السادس أو السابع لحمل الزاد ، ومن مرور عامر بن فهيرة بقطيع الغنم إلى منطقة الجبل لمحو أثر المسير، ومن اختيار ليلة الخروج بعد مكيدة قريش التي جمعت سبعين شابا من مختلف بطون قريش لقتل النبي صلى الله عليه وسلم ليتوزع دمه على بطون قريش فلا تقدر بنو هاشم الأخذ بثأره، فتحدث إثره معجزة خروجه بينهم وهو يتلو قوله تعالى : ﴿ وجعلنا من بين أيدهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون ﴾[3]، حتى يستفيق القوم أو لعلهم يستفيقون بعد مدة وأمّة .

كل هذا الإعداد درس لكل مسلم حتى لا يألو أي جهد لإنجاح كل مشروع وفكرة وتجسيد كل أمنية واقعيا، وهو الذي سُئل عليه الصلاة والسلام من بعدُ من طرف أعرابي آتٍ إليه على ناقة وبعد أن دعاه النبي صلى الله عليه وسلم للدخول إلى مسجده قال له الأعرابي بخصوص ناقته :(( **أأعقلها أم أتوكل على الله ؟**)) **فأجابه :(( بل إعقلها وتوكّل على الله** [4].

هذا هو الفهم الصحيح للتوكل على الله، وهو استنفاذ مسألة الأخذ بالأسباب ثم التسليم لله ببلوغ الهدف، ﴿ . . .وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ﴾ [5].

حدثت في الهجرة أحداث تدخّلت فيها العناية الإلهية لتكميل ما نقص من جهد النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبه أبي بكر رضي الله عنه ، لكن ذلك لم يحدث إلا بعد استنفاذ الأخذ بالأسباب كمداواة رسول الله صلى الله عليه وسلم لقدم صاحبه من لدغة العقرب وهما في الغار، وكوصول القوم إلى باب الغار وعماهم عن رؤية من فيه وما اختلف حوله العلماء والرواة من شأن نسج العنكبوت لبيتها على باب الغار وإقامة الحمام للعش في فم الغار ، وما رُوي من شبه إدراك سراقة بن مالك لهما في الطريق وتعثّر جواده ونشوب نار من حوله حتى أصبح يطلب الأمان من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وغير ذلك .

وأنا أتعمد المرور على هذه المعجزات والكرامات لأقول أن من أخذ بالأسباب واستنفذ كل الجهد غير مقصّر في ذلك فإن حدوث الكرامات وارد لكل المتقين إلى يوم القيامة في عقيدتنا ، وقد حدثت هذه الكرامات بالفعل لمن هو أدنى من الأنبياء ومن الصحابة عبر التاريخ وما بعضها عن زماننا ببعيد ﴿ . . .كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، والله مع الصابرين ﴾ [6].

2 - **الإشراقة الثانية:** ثبات الأخلاق من منظور الإسلام:

لم تكن الأخلاق لتكون غير ذلك، سوى أن تكون مجسّدة في سمت النبي صلى الله عليه وسلم الطبيعي غير المتكلف، وهو الذي قال فيه ربّه: ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ [7] .

هذا الثبات الأخلاقي الذي لا يتزعزع ولا يتبدل في أحلك اللحظات واستتباب الأزمات وإقبال المدلهمات.

ورد من هدي النبي صلى الله عليه وسلم في بعض كتب الحديث وما رُوي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه في موطأ الإمام مالك أنه رضي الله عنه بعث جيوشا إلى الشام فخرج يمشي مع زيد بن أبي سفيان وكان أمير ربع من تلك الأرباع ثم قال له : (( **وإني موصيك بعشر : لا تقتلن امرأة ولا صبيا ولا كبيرا هرما ولا تقطعن شجرا مثمرا ولا تخربن عامرا ولا تعقرن شاة ولا بعيرا إلا لمأكلة ولا تحرقنّ نخلا ولا تغرقنّه ولا تغلل ولا تجبن**)) .

هذه الأخلاق السامية الرفيعة هي التي اهتدى إليها العقلاء من هذا العالم الذي نعيش فيه بعدما شاهدوه من دمار الحروب خاصة في القرن العشرين وجعلها أخلاقا حربية محمية باتفاقيات دولية.

هذا غيض من فيض من هدي الإسلام في إرسائه لمنظومة أخلاقية ثابتة غير متغيرة بالرغم مما قاله النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة الأحزاب : **(الحرب خدعة فخذّل عنا ما استطعت)** فهذا يدخل في تقنيات الحرب من الكر والفر والمبادرة والمباغتة بعد نشر فتيل الحرب، وكل الحروب مبنية على ذلك عند سائر الأمم ،ومن نتائج هذه الخدعة المشروعة التقليل من الخسائر البشرية بتحقيق النصر بأدنى الخسائر سواء عند المسلمين أو عند عدوهم ، والذي سوف يستسلم تفاديا للخسائر الكبرى .

فحقن الدماء من أهداف الحرب في الإسلام، والخدعة ليست خيانة لأن الخيانة نقيض الوفاء بالعهود، وقد قال في ذلك الله تعالى: ﴿ وإما تخافنّ من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين ﴾ [8].

وتتجلى إشراقة ثبات الاخلاق وسموها في حادثة الهجرة النبوية في استخلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم واستبقائه علي بن أبي طالب رضي الله عنه وراءه يرقد في مكانه يستأمنه على أمانات الناس وزعماء قريش عنده،

وهم من حاربوه وأرادوا قتله وتوزيع دمه على البطون والقبائل، فلم يقابلهم بنفس الخلق الذميم والدنيء، وكان له أن يألمهم في أموالهم لكنه نبي ورسول ومسلم وهؤلاء الثلاثة لا يفعلون ذلك، وهو عليه الصلاة والسلام القائل : **(أدّ الأمانة إلى من ائتمنك ، ولا تخُن من خانك )** [9].

المسلم لا يتساوى في الأخلاق مع غيره، فقد يعاقب بمثل ما عوقب به ولكنه لا يتدنى أخلاقيا .

قال الله تعالى : ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين﴾ [10]، وقال : ((وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين﴾ [11]. فالرد بالمثل قانونيا يدخل في القصاص في بعض الأحوال وقد يكون حوارا حضاريا بين دول وأقاليم سياسية متحاربة، لكن الأخلاق تبقى ثابتة، فالخيانة خيانة، والوفاء وفاء، والغدر غدر، والشهامة شهامة، والميزان واحد لا يتبدل عند الله ﴿ألّا تطغوا في الميزان، وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان﴾ [12].

إن معركة القيم والأخلاق هي أول معارك الإنسانية وآخرها بعد أن تملّ كل الشعوب والأمم معارك المصالح المادية، لتبقى القيم والأخلاق آخر ما يحتفظ به البشر من كرامة وما يعيدهم إلى أفضليتهم.

**3 - الإشراقة الثالثة:** قيمة الوثوق في النصر ( إن الله معنا) :

(إن الله معنا) قالها أنبياء ومرسلون من قبله عليه الصلاة والسلام، قالها إبراهيم عليه السلام مهاجرا وهاجرا قومه ﴿وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين﴾ [13]، فكان الله معه وهداه وجعله أمة وصيّره له خليلا وجعل النبوة في ذريته القريبة والبعيدة وأبقى عليه وعلى ذكره في الآخرين .

وقالها موسى عليه السلام وهو مخرجٌ بني إسرائيل مهاجرا بهم من ظلم فرعون وجوره حتى وصل بهم البحر وظنوا أنهم مدركون من خلفهم من جنود مستعبدهم فقال: ﴿ . . . كلا إن معي ربي سيهدين﴾ [14]، فكان الله معه ومع قومه وشق لهم البحر وأغرق عدوهم.

إن الوثوق في نصر الله نابع من عقيدة المؤمن في أسماء الله وصفاته وفي نفاذ أمره وأنه مدبر الكون ومديره وأنه لا حول ولا قوة إلا به وأن وعده ناجز لا محالة متى استنفذ العبد الأسباب وأخلص نية التوكل عليه .

سياق الآية التي ورد فيها هذا الوثوق بمعية الله وبنصره جاء في معرض عتاب الله لبعض أصحاب رسوله صلى الله عليه وسلم من نكوص بعضهم عن نصرة النبي صلى الله عليه وسلم في نفسه قائلا: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [15].

فبلوغ النصر ونيله لا يتأتى إلا إذا تفانى العبد في الوثوق في قدرة ربه وفي وقوع وبلوغ أمره.

وقد رُوي أن النبي صلى الله عليه وسلم بلغ من هذا الوثوق والتصديق بمعية ربه مبلغا لا خوف معه ولا وجل، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه حدّثهم قال: **نظرت إلى أقدام المشركين فوق رؤوسنا ونحن في الغار فقلت: يا رسول الله، لو أن أحدهم نظر تحت قدمه أبصرنا: فقال: يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما** [16].

إن هذا الشعور لا يتأتى إلا إذا بلغ العبد أعلى درجات التسليم لخالقه في كل أمره ، مع الوثوق في أن الله لا يضيع أجر المحسنين ولن يخذل المؤمنين الصادقين، فمن توكل على الله حق التوكل وجب له نصر الله ، وأولياء الله لا يذلون أبدا لأن الله العزيز قد تعهّد لهم بنصره والله الحكيم يقدّر النصر لمن يستحقه ، وقد صدق إذ قال : ﴿وكان حقا علينا نصر المؤمنين﴾ [17].

**4 - الإشراقة الرابعة:** مكانة المسجد في حياة الأمة :

لم تطأ بعد قدما رسول الله صلى الله عليه وسلم أرض يثرب وهو على مقربة نصف يوم أو أقل منها، يتوقف في قباء توقّف المستعد المتأهب لدخولها لبضع

أيام ، يستشعر باستعداد نفسي ما يستقبل من أيام هامة في حياة الأمة، فيشيد خلالها أول مسجد في الإسلام المحمدي ثم يضع له قدسية روحية بعد سنوات تعدل أجر عمرة تامة لما له من مكانة في قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مكانة البكر من الأولاد لمن رُزق الذريّة .

ثم يمضي عليه الصلاة والسلام إلى حيث القصد ، فيدخلها والقوم يتجاذبه للارتياح والسكن عنده ، لكنه يأبى أن يُقام له بيت قبل أن يقام ويشيّد بيتٌ للأمة ، وبدأ يبني المسجد الذي سيُنسب إليه ، لأنه مدرك أنه بناء لصرح تُبنى من خلاله الأمة .

لقد احتل المسجد في حياة الأمة الجديدة محل القلب من الجسد إذ به تتحرك الأمة وإليه تعود ومنه تستمد وقود حياتها ، قال الله تعالى : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾[18].

فنور الإيمان بالله يوقد، وشعلةٌ ينبغي للأمة أفرادا وجماعات أن يحرصوا على توقّدها واشتعالها، ثم يدلنا تبارك وتعالى على المحطة الأهم للحفاظ على فتيل الإيمان به مشتعلا على مدار الزمان قائلا بعد هذه الآية مباشرة : ﴿ في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب[19].

دور المسجد في العهد الأول من الإسلام قبل أن تتطور المؤسسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية كان محوريا وخطيرا ومصيريا، فيه التعليم يمارس ، والتزكية تتجسد، والتربية تحصل، والقرارات الكبرى تتخذ، والجيوش تجهّزوتخرُج، والتضامن الاجتماعي يحصل ، والخلافات تسوّى،

والاختلافات تُرفع، والعبادات تؤدّى والذكر يُعلى ، وحياة الأمة يُفكّر في مصيرها، كبير تفاصيل حياتها وصغيرها .

ولا يزال المسجد في عصرنا هذا يحتل مكانة هامة وخطيرة في حياة الأمة ، بالرغم من تشعّب الحياة وخروج كثير من الممارسات الاجتماعية والسياسية من محيط المسجد ، لكنه يبقى موجّها لها في العقل الجمعي ، ومشكّلا لفهمها للأحداث والتغيرات ومكانا لتجسيد وجدانها وبقاء وجودها، وصرحا يدل على انتمائها الحضاري لتمارس فيه طقوسها وعباداتها وتجد فيه مقومات استخلافها في الأرض متى عادت إليه وانطلقت منه .

عند استقراء تاريخ البشرية سنجد أن لمعبد ملازم لحضارة والتمدّن بل للتواجد الإنساني منذ فجر التاريخ ، وآثاره قديمة قِدم التواجد البشري ، ولم تنطفئ هذه المعابد حتى في أحلك فترات التاريخ عداء للأديان والحياة الروحية ، وما استطاع الإلحاد في بعض مناطق أوروبا وآسيا أن يقضي على الكنائس والمآذن والمساجد طيلة ما يقرب من قرن في القرن الميلادي الماضي ، لأن انجذاب الإنسان ونزوعه إلى التدين أقوى من أيعارض دون ذلك، فالفطرة منتصرة لا محالة ، وما جاء المسجد إلا تعزيزا لهذه الفطرة ، وتأكيد لها وتعضيدا لقوتها في توجيه الإنسان نحو قيم الحق والخير والجمال ، يستمد منه الإنسان وقودها ليبقى محافظا على الفطرة حتى يفارق هذا الوجود ويعود سالما إلى حيث كان ، ولن تحافظ الأمة على وجودها وعزّتها وخيريّتها في دنيا الناس إلا إذا عادت إلى أساس بنائها كالمسجد وما يحمله من مهام نهوض الأمة والحفاظ عل كيانها وتلقّي دستور أخلاقها الأبدي الذي به وإليه تحتكم وتحافظ على معيار قياس أفضليتها بين الأمم .

كثير من دساتير الدول وقوانينها لم تكتب، بل بيت أعرافا متداولة بين أفرادها، تحتكم إليها بضابط أخلاقي.

ليست المساجد بناء إسمنتيا، بمثل ما هي بناء أخلاقي، ومعيار تعود إليه الأمة، ومعلم شاهد عليها يذكّرها بالسماء بعلوّ مآذنها، وبالخطاب التوجيهي الذي يحصّنها ويوقد فيها حياة البقاء والنماء والتميز بين الناس.

**5 - الإشراقة الخامسة : العقد الاجتماعي قبل العقد السياسي :**

ما إن وصل رسول الله صلى الله عليه وسلم أرض يثرب حتى شرع في تطبيق فكرة، ما خطرت ببال أحد قبله ، وهي إقامة رابط واقعي لأخوة الدين التي تجمع المؤمنين به لإزالة الفروق الاجتماعية ودمج الوافدين إلى المدينة المنورة ، ولأجل تبادل الخبرات بين مجتمع زراعي فلاحي هو مجتمع يثرب وبين مجتمع تجاري بامتياز هو مجتمع مكّي ممتلك لخبرات الأعمال وإقامة الأسواق ..

وهذا العقد الاجتماعي هو ما عُرف في السيرة بالمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار.

خرج المهاجرون من مكة المكرمة، تاركين وراءهم الدّور والتجارات والوجاهات إلى أرض جديدة وواقع مختلف، ترافقهم الغربة عن الوطن والغربة بالنظر للأعراف الجديدة عليهم، فكانوا يعيشون ضغوطا نفسية وواقعية، حتى التحق بهم النبي عليه الصلاة والسلام فوجدوا الدفء، لكنهم ظلوا يعيشون عالة على باقي المجتمع ، فاهتدى النبي إلى إدماجهم اجتماعيا حتى ينطلقوا في العطاء بدلا من الأخذ .

ليس هناك اندماج اجتماعي ما لم يكن مبنيا على محو الفوارق وتقبّل الآخر ومزج ثقافة الوافد بثقافة المستقبل.

لم تُمح خلال هذه المؤاخاة خصوصيات المهاجرين ولا تواجدهم فيما بعد حتى في الحروب والمعارك ، لكن هذه المؤاخاة اعتمدت على المزج بدل الذوبان ، وهكذا كان انتشار الإسلام لقرون عديدة بين عدة شعوب في المنطقة الإسلامية بحفاظ كل المعتنقين على خصوصياتهم اللغوية والثقافية والاجتماعية وتقبّل الفاتحين دون ذوبان إلا في مجال الفكرة الدينية للمجتمع، وهذا أعتبره من إعجاز الإسلام في حركته التاريخية والتي بها انتشر هذا الدين انتشارا سريعا ولقي قبولا عند باقي الشعوب لأنه لا يدعوهم إلى الزوال أو الذوبان بل إلى الامتزاج غير المقصي .كانت بداية هذا العقد الاجتماعي فكرة المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار في المجتمع المثالي في المدينة المنورة.

لقد سبق محمد عليه الصلاة والسلام بقرون فكرة العقد الاجتماعي التي كتب عنها جون جاك روسو لتوحيد فرنسا التاريخية والتي لم تُجسّد واقعا إلا بحروب عديدة ، وثورات دموية مبنية على تذويب الفوارق وعلى تغليب الفئة الغالبة وثقافتها .

أما محمد عليه الصلاة والسلام فإنه أنزل عالم المُثل إلى أرض الواقع بفكرة المؤاخاة التي كانت تنافس أخوة الدم، ووصلت إلى التوارث قبل أن تنسخها آيات الميراث في القرآن الكريم، لتبقى هذه التجربة مرجعا تاريخيا يمكن الاستلهام منه في كل وقت .

**6 . الإشراقة السادسة:** وثيقة المدينة ودستورها ودولة المواطنة:

مذ وطئت أقدام النبي ﷺ أرض يثرب، والتي أبدل اسمها وأعطاها اسما سياسيا متمثلا في اسم «المدينة» (cité) وهو الاسم الذي كان يمثل مفهوم الدولة منذ بدء الحضارات (La cité-état) خاصة في حضارة بلاد الرافدين مهد الحضارات أصبحت صفة القائد السياسي لصيقة بشخص النبي صلى الله عليه وسلم الراعي، وصفة الرعية لصيقة بكل ساكني هذه المدينة.

- وصل النبي ﷺ فأسس المسجد كدار للاجتماع ومكان لتلقي التشريع من طرف الناس، وآخى بين المهاجرين والأنصار لتحقيق الإدماج الاجتماعي لكل عناصر ومكونات المجتمع الذي أرساه، وهو ما يقابله في القرن (الثامن عشر من تأسيس مفهوم « العقد الاجتماعي» (Le contrat social) عند جون جاك روسو.

- أسس جيشا يقوم بمهمة الدفاع عن الكيان والحدود وردّ العدوان.

- راقب الحياة الاقتصادية بتأسيس سوق موازية للسوق الموجودة سابقا والتي استولى عليها اليهود واحتكروا فيها الأموال والسلع والأسعار. ورفع الرايات والألوية، وصنع خاتما يوقع به الوثائق الرسمية.

- أطلق مبدأ الاستثمار – وخاصة منه الفلاحي والزراعي- بمبدأ « من أحيا أرضا مواتا فهي له»

- أمم بئرا كانت ملكا ليهودي يحتكر

بها توزيع الماء الشروب، وأعلن النبي ﷺ قانونا عاما بامتلاك الدولة لمصادر الطاقة، بقوله « الناس شركاء في ثلاث الماء والناروالكلأ ».

- وأخيرا أمر بكتابة وثيقة المدينة ودستورها، كضابط للحياة السياسية بالمدينة بعد مشاورات لعدة أيام، حتى خرج منتج متفق عليه يحظى بإجماع الجميع يكرس دولة المواطنة دون النظر إلى الأعراق والأديان والثقافات المتنوعة، بل جامعا لكل هذه المكونات في دولة مدنية تحمل حقا عنوانها.

### مع ملاحظات مهمة :

**الأولى:** أن أول ما يتبادر إلى الذهن من مفهوم المواطنة في دولة النبي عليه الصلاة والسلام، أن ولاءها لا يرتبط إطلاقا بعرق أولون أو طائفة أو عشيرة أو قبيلة أو طبقة أو حتى دين. بل ارتباطها هو ارتباط بميثاق يجتمع حوله الجميع بمشاركتهم في مصالح تحدد مصائرهم متحدين، فجمع سياسيا كل طوائف ساكني المدينة بالاعتراف بهم أولا ثم بإدماجهم في مبدأ المواطنة والمساواة في الحقوق والواجبات والالتزامات في السلم والحرب.

**الثانية:** أن النبي عليه الصلاة والسلام لم يدع سكان المدينة ومواطنيها إلى الاحتكام إلى القرآن، ولا إلى سنته، وإنما دعاهم إلى الاحتكام والالتزام بما يصلون إليه من اتفاق سياسي خرجت به وثيقة المدينة، بمشاركتهم أولا في صياغتها، الشيء الذي ينتج لنا مفهوم ما يسمى بالقانون الوضعي المتفق عليه بين البشر. وبالتالي فقد أسس النبي (ص) لدولة مدنية لا تحتكم إلى الدين، وإنما تحتكم إلى القانون والاتفاق المشترك من أجل مصير مشترك برعاية من قيم الدين ومثله العليا.

- وأرسى مبدأ البيعة التي يقابلها الانتخاب والاستفتاء في عصرنا، لكل من الرجال و النساء على السواء.

- وأرسى مبدأ الشورى ابتداء وانتهاء، فما أن دخل المدينة حتى بدأ المشاورات مع كل القبائل والطوائف لصياغة دستور ووثيقة المدينة.

## مبادئ المواطنة وقيمها وتجلياتها في دولة النبي ﷺ بالمدينة:

نستند لاستخلاص هذه المبادئ والقيم من خلال وثيقة ودستور المدينة الذي وضعه النبي ﷺ بعد مشاورات (بمعنى أنه لم يكن وحيا بدليل أنه جاء بعد مشاورات).

**أولا:** الوثيقة مؤسسة لميثاق شرف المواطنة وتقرير حقوق المواطنين على أساس واضح من المساواة وتحمل المسؤوليات دون أدنى امتيازات، على عكس كثير من الدساتير العالمية حتى في عصرنا هذا.

**ثانيا:** الوثيقة دستور مختصر لا يتعدى صحيفة واحدة ببنودها ال 52 (الاثنين والخمسين)، ما يجعلها جامعة مختصرة قابلة للاستيعاب، وهو تأسيس لأسلوب المنظومات القانونية.

**ثالثا:** إقرار مبدأ وقيمة «الأمة» فوق فكرة القبلية التي كانت تحكم حياة العرب في الجزيرة آنذاك ، وذلك في البند:

« إنهم أمة واحدة من دون الناس»

**رابعا:** قيمة التكافل الاجتماعي بين كل فصائل الأمة (Nation) وهذه القيمة كتبت في البنود التالية:

« المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين»

« و بنو عوف.....» و بنو ساعدة .....

«و بنو جشم .....»و بنو النبيت .....»

وبنو الأوس.....

« وإن المؤمنين لا يتركون مفرحا بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل»

**خامسا:** ردع الخائنين للعهود : إرساء لمفهوم الخيانة العظمى الذي فسره البعض بحكم قتل المرتد تفسيرا خاطئا.

من خلال البند التالي : وإن المؤمنين المتقين «أيديهم» على «كل» من بغى منهم أو ابتغى دسيعة ظلم أو إثما أو عدوانا أو فسادا بين المؤمنين، وإن أيديهم عليهم جميعا، ولو كان ولد أحدهم.

وهذا ما طبق على يهود بني قريظة بعد غزوة الأحزاب التي خانوا فيها.

**سادسا:** حماية الأقليات غير الإسلامية، وجعلها في ذمة المسلمين وذلك في البند: «وإنه من تبعنا من يهود

فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصر عليهم».

**سابعا :** الأمن الاجتماعي كقيمة ومبدأ وذلك بفرض الديات وضمانها.

**ثامنا:** حرية الاعتقاد وممارسة الشعائر مكفولة : وجاء في هذا البند:

« وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، ومواليهم وأنفسهم إلا من ظلم نفسه وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته»

**تاسعا:** قيمة المشاركة المالية من طرف الجميع لضمان الأمن والأمان. وجاء في ذلك البند «وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين» فمسألة الدفاع عن الدولة وكيانها وحدودها مسؤولية الجميع.

**عاشرا :** الاستقلال المالي لكل طائفة: وذلك في البند : « **وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم**» وهذا ما يحدد من سلطة الدولة في فرض الضريبة والجباية إلا بما تحتاجه في وقت الحاجة، ويفتح المجال لحرية الملكية الخاصة المراقبة.

**الحادي عشر:** وجوب الدفاع المشترك ضد العدوان : في البنود التالية :

« وإن بينهم النصر على من دهم يثرب»

« وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة»

**الثاني عشر:** حق الأمن لكل مواطن تحت ظل دولته:

**الثالث عشر:** الدقة في المساواة في الحقوق دون تمييز:

حسبُنا من مظهر التطبيق لهذه المساواة ما قرره النبي صلى الله عليه وسلم في البند الآتي « وإن ذمة الله واحدة، يجير عليهم أدناهم ».

معنى ذلك أن ذمة المواطن أيا كانت محترمة، وجواره محفوظ لا ينبغي أن يجار عليه فيه. والمرأة لا تختلف في هذا عن الرجل إطلاقا، فلجوارها من الحرمة ما لا يستطيع أن ينتهكه أي إنسان مهما علت رتبته وبلغت منزلته، عنوان ذلك «قد أجرنا ما أجرت يا أم هانئ».

## خاتمة:

وعلى حسب علمي، لم يسبق محمدا ﷺ أحدٌ من البشر أسس دولة للمواطنة بهذا المفهوم الشامل والعميق والجامع لكل الاختلافات والخصوصيات والفروقات دون تمييز ديني أو طائفي أو عرقي أو طبقي أو قبلي. وتبقى وثيقة المدينة وسام شرف تحتفظ به حضارة الإسلام، تثري به المواثيق العالمية لحقوق الإنسان الخاصة والعامة، وشاهدة على الناس لسماحة الإسلام وتقبله للآخر، بل ولاحتضانه مواطنا غير منقوص الحقوق والواجبات، يتساوى في ظل الإسلام مع المسلم مع احتفاظه بحرية المعتقد وممارسة شعائره في ظل كرامة المواطنة الكاملة في دولة المواطنة بحق.

وتبقى الهجرة النبوية إشراقة لأن الهجرة كانت تحولا مهمّا في التاريخ الاسلامي كالفجر وإشراقته.

## الهوامش

1 سورة الفرقان / 31

2 -رواه البخاري ومسلم

3 -يس/9

4 -رواه الترمذي

5 -آل عمرن/126

6 -البقرة/249

7 -القلم/4

8 -الأنفال/58

9 -الدارمي والترمذي والحاكم

10 -الشورى/ 40

11 -النحل/ 126

12 -الرحمان/8 و9

13 -الصافات/99

14 -الشعراء/62

15 -التوبة / 40

16 -رواه مسلم

17 -الروم / 47

18 -النور/ 35

19 -النور/ 36 ، 37 ، 38

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة الشؤون الدينية والأوقاف

مديرية التوجيه الديني والتعليم القرآني

المديرية الفرعية للتعليم القرآني

## الأسبوع الوطني العشرين للقرآن الكريم

وهران25 - 26 - 27 ربيع الأول 1440 هـ الموافق 03 - 04 - 05 ديسمبر 2018 م

## محضر المسابقة النهائية لحفظ القرآن الكريم وتجويده وتفسيره

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم النبيين وإمام المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد،

فإنه بعد انتهاء فعاليات المسابقة الوطنية النهائية لحفظ القرآن الكريم وتجويده وتفسيره، اجتمعت لجنة التحكيم الموقعة أدناه في يوم الأربعاء 27 ربيع الأول 1440 هـ الموافق 05 ديسمبر 2018 م بقاعة المحاضرات للجامع القطب عبد الحميد بن باديس - ولاية وهران.

حيث قامت اللجنة بمداولة نتائج الفرع الأول وهو حفظ القرآن الكريم كاملا مع التجويد والتفسير، وتبين بعد التدقيق التام والمراجعة ترتيب المتسابقين كما يلي:

### الفرع الأول :

| الرقم | الاسم واللقب | الولاية | حفظ | تجويد | تلاوة | تفسير | النتيجة | الرتبة |
|---|---|---|---|---|---|---|---|---|
| 1 | عبد الله يوسف سعيدي | المدية | 49.50 | 15.83 | 16.50 | 10.00 | 91.83 | 1 |
| 2 | بلمهدي هيثم | سيدي بلعباس | 50.00 | 16.33 | 15.17 | 10.00 | 91.50 | 2 |
| 3 | يوسف همام طير | باتنة | 49.50 | 16.33 | 15.67 | 10.00 | 91.50 | 2 |

| | | | | | | | | |
|---|---|---|---|---|---|---|---|---|
| 4 | إلهام بن ولهة | الجزائر | 48.25 | 17.00 | 15.67 | 10.00 | 90.92 | 4 |
| 5 | عزيزي خديجة | الوادي | 48.75 | 15.67 | 16.42 | 10.00 | 90.83 | 5 |
| 6 | خير الدين بلقاسم | بومرداس | 50.00 | 15.17 | 14.75 | 10.00 | 89.92 | 6 |
| 7 | هاجر بن جودي | بسكرة | 47.50 | 14.33 | 15.33 | 10.00 | 87.17 | 7 |
| 8 | بكاري قادة | معسكر | 47.50 | 14.50 | 15.17 | 10.00 | 87.17 | 8 |
| 9 | بلال قراش | قسنطينة | 49.00 | 14.33 | 12.83 | 10.00 | 86.17 | 9 |
| 10 | زكريا بوعلام | وهران | 49.00 | 15.33 | 13.33 | 8.00 | 85.67 | 10 |
| 11 | رياض مزين | سطيف | 49.00 | 13.00 | 14.50 | 9.00 | 85.50 | 11 |
| 12 | بلخضر نور الهدى | غرداية | 47.25 | 13.33 | 12.67 | 9.50 | 82.75 | 12 |
| 13 | أيمن ناصري | البليدة | 45.58 | 13.33 | 13.67 | 10.00 | 82.58 | 13 |
| 14 | بن عامر شمس الدين | تلمسان | 48.50 | 10.67 | 10.00 | 10.00 | 79.17 | 14 |
| 15 | إكرام بريغث | عنابة | - | - | - | - | - | غائبة |

## توقيع أعضاء لجنة التحكيم:

| الاسم واللقب | الصفة |
|---|---|
| الدكتور . عماد بن عامر | رئيسا |
| الأستاذ . عبد الكريم حمادوش | عضوا |
| الأستاذ . خالد درباني | عضوا |
| الأستاذ . عبد الكريم سعدودي | عضوا |
| الأستاذ . منصور بلحاج | عضوا |
| الأستاذ . بلال سعيدان | محافظا |

## الأسبوع الوطني العشرين للقرآن الكريم

وهران25 - 26 - 27 ربيع الأول 1440 هـ الموافق 03 - 04 - 05 ديسمبر 2018 م

## محضر المسابقة النهائية لحفظ القرآن الكريم وتجويده وتفسيره

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم النبيين وإمام المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد،

فإنه بعد انتهاء فعاليات المسابقة الوطنية النهائية لحفظ القرآن الكريم وتجويده وتفسيره، اجتمعت لجنة التحكيم الموقعة أدناه في يوم الأربعاء 27 ربيع الأول 1440 هـ الموافق 05 ديسمبر 2018 م بقاعة المحاضرات للجامع القطب عبد الحميد بن باديس - ولاية وهران.

حيث قامت اللجنة بمداولة نتائج الفرع الثاني وهو حفظ القرآن الكريم كاملا مع التجويد، وتبين بعد التدقيق التام والمراجعة ترتيب المتسابقين كما يلي:

### الفرع الثاني :

| الرقم | الاسم واللقب | الولاية | حفظ | تجويد | تلاوة | النتيجة | الرتبة |
|---|---|---|---|---|---|---|---|
| 1 | نادية بوساق | بجاية | 50,00 | 26,92 | 17,42 | 94,33 | 1 |
| 2 | أمير مشري | عنابة | 50,00 | 26,50 | 17,67 | 94,17 | 2 |
| 3 | خالد بن سليمان | بومرداس | 49,75 | 27,17 | 17,17 | 94,08 | 3 |
| 4 | مصطفى شوكري | الجزائر | 50,00 | 26,08 | 17,58 | 93,67 | 4 |
| 5 | يوسف بن جودي | بسكرة | 50,00 | 26,33 | 16,67 | 93,00 | 5 |
| 6 | سلمى نكي | قسنطينة | 50,00 | 26,33 | 16,58 | 92,92 | 6 |
| 7 | إبراهيم بلجيلالي | وهران | 50,00 | 26,33 | 15,67 | 92,00 | 7 |

| | | | | | | | |
|---|---|---|---|---|---|---|---|
| 8 | سلمى سايغي | تيبازة | 49,75 | 25,17 | 16,08 | 91,00 | 8 |
| 9 | تباني شيماء أنفال | المسيلة | 49,00 | 25,50 | 15,83 | 90,33 | 9 |
| 10 | عمري حليمة | برج بوعريريج | 49,50 | 24,17 | 15,50 | 89,17 | 10 |
| 11 | أسامة عبد القادر قلقال | الشلف | 50,00 | 23,33 | 15,75 | 89,08 | 11 |
| 12 | أسماء قسول | عين الدفلى | 48,75 | 25,00 | 14,33 | 88,08 | 12 |
| 13 | زوزو ياسر | ورقلة | 49,75 | 22,83 | 14,33 | 86,92 | 13 |
| 14 | عبد المالك ديداوي | أدرار | 48,25 | 22,33 | 13,50 | 84,08 | 14 |
| 15 | جمانة تشير | سطيف | 40,08 | 24,17 | 14,67 | 78,92 | 15 |

## توقيع أعضاء لجنة التحكيم

| الاسم واللقب | الصفة |
|---|---|
| الدكتور . عبد الهادي لعقاب | رئيسا |
| الأستاذ . يوسف نورين | عضوا |
| الأستاذ . زيان بن عزوز | عضوا |
| الأستاذ . عمر بوسعدة | عضوا |
| الأستاذ . زكريا بسباسي | عضوا |
| الأستاذ . بلال سعيدان | محافظا |

## الأسبوع الوطني العشرين للقرآن الكريم

وهران25 - 26 - 27 ربيع الأول 1440 هـ الموافق 03 - 04 - 05 ديسمبر 2018 م

## محضر المسابقة النهائية لحفظ القرآن الكريم وتجويده وتفسيره

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم النبيين وإمام المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد،

فإنه بعد انتهاء فعاليات المسابقة الوطنية النهائية لحفظ القرآن الكريم وتجويده وتفسيره، اجتمعت لجنة التحكيم الموقعة أدناه في يوم الأربعاء 27 ربيع الأول 1440 هـ الموافق 05 ديسمبر 2018 م بقاعة المحاضرات للجامع القطب عبد الحميد بن باديس - ولاية وهران.

حيث قامت اللجنة بمداولة نتائج الفرع الثالث وهو حفظ القرآن الكريم كاملا لصغار الحفظة، وتبين بعد التدقيق التام والمراجعة ترتيب المتسابقين كما يلي:

### الفرع الثالث :

| الرقم | الاسم واللقب | الولاية | الحفظ | التجويد | التلاوة | النتيجة | الرتبة |
|---|---|---|---|---|---|---|---|
| 1 | عبد الودود بن سديرة | الجزائر | 49,67 | 26,33 | 16,33 | 92,33 | 1 |
| 2 | مناصري أحمد الشريف | ورقلة | 48,67 | 26,33 | 16,33 | 91,33 | 2 |
| 3 | ألاء زيتوني | البليدة | 47,08 | 26,33 | 15,67 | 89,08 | 3 |
| 4 | نذير يونس | جيجل | 48,17 | 25,83 | 14,83 | 88,83 | 4 |
| 5 | محمد الأمين بن حميميد | برج بوعريريج | 48,75 | 26,00 | 13,67 | 88,42 | 5 |

| | | | | | | | |
|---|---|---|---|---|---|---|---|
| 6 | موساوي عبد الرحمان | معسكر | 48,33 | 23,67 | 15,83 | 87,83 | 6 |
| 7 | منذر يونس | قسنطينة | 47,17 | 24,67 | 15,17 | 87,00 | 7 |
| 8 | محمد صلاح الدين رمال | بومرداس | 48,50 | 23,67 | 14,67 | 86,83 | 8 |
| 9 | محمد نور الإسلام دعموش | سطيف | 49,00 | 22,67 | 15,00 | 86,67 | 9 |
| 10 | عبد الله بلقاسمي | المدية | 47,00 | 23,50 | 15,67 | 86,17 | 10 |
| 11 | بوراس مريم | عين تموشنت | 45,00 | 25,33 | 15,00 | 85,33 | 11 |
| 12 | بشير بوبجرة وليد | سيدي بلعباس | 45,33 | 24,67 | 15,00 | 85,00 | 12 |
| 13 | سحنون بوزيد عبد الودود | وهران | 48,08 | 21,50 | 13,33 | 82,92 | 13 |
| 14 | محمد العربي غناي | ميلة | 49,67 | 20,33 | 12,67 | 82,67 | 14 |
| 15 | عجاج معاذ | تلمسان | 36,17 | 24,50 | 16,17 | 76,83 | 15 |

## توقيع أعضاء لجنة التحكيم:

| الاسم واللقب | الصفة |
|---|---|
| الدكتور. فتحي لعطاوي | رئيسا |
| الدكتور . خليل قاضي | عضوا |
| الأستاذ . عمار رقبة | عضوا |
| الأستاذ . عبد الرؤوف بوكثير | عضوا |
| الأستاذ . عبد الله عويسي | عضوا |
| الأستاذ . بلال سعيدان | محافظا |

# شأن القرآن في حياة المؤمن

**بقلم : أ. عز الدين بوغلم**
مكلف بالدراسات والتلخيص

## الخطبة الأولى:

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، من يهدي الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أما بعد:

قال الله تعالى: ﴿وقال الرسول يا ربّ إنَّ قومي اتَّخذوا هذا القرآن مهجورا﴾ [الفرقان: 30].

قال الحافظ الكبير أبو الفدا ابن كثير: «يقول تعالى مخبراً عن رسوله ونبيِّه محمَّد -صلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم الدين- أنَّه قال: ﴿يا ربّ إنَّ قومي اتَّخذوا هذا القرآن مهجورا﴾[ الفرقان: 30]، وذلك أنَّ المشركين كانوا لا يُصغون لهذا القرآن ولا يسمعونه كما قال تعالى: ﴿وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوْا فيه لعلَّكم تَغلبون﴾[فصلت: 26]، وكانوا إذا تلي عليهم القرآن أكثروا اللغط والكلام في غيره، حتَّى لا يسمعوه فهذا من هجرانه، وترك علمه وحفظه أيضًا من هجرانه، وترك الإيمان به وتصديقه من هجرانه، وترك تدبُّره وتفهُّمه من هجرانه، وترك العمل به وامتثال أوامره واجتناب زواجره من هجرانه، والعدول عنه إلى غيره -من شعر أو قول أو غناء أو لهو أو طريقة مأخوذة من غيره- من هجرانه. فنسأل الله الكريم المنان القادر على من يشاء أن يخلِّصنا مما يسخطه ويستعملنا فيما يرضيه من حفظ كتابه وفهمه والقيام بمقتضاه آناء الليل وأطراف النهار على الوجه الذي يحبه ويرضاه إنَّه كريم وهَّاب».

عباد الله! روى جابر رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: **((القرآن شافع مشفَّع، ماحل مصدَّق، من جعله أمامه قاده إلى الجنَّة، ومن جعله خلف ظهره ساقه إلى النار))**[1].

ولفظ الحديث، واضح المعنى قويُّ المبنى في أنَّ من جعل القرآن قائده وهاديه فإنَّه يقوده إلى الخير ويهديه السبيل، أمَّا من جعل القرآن وراءه فهو لا يهتدي به في حياته، ولا يجعله بمنْزلة المصباح يُضيء له الطريق ويهديه السبيل فإنه يسلكه إلى جهنم وبئس القرار.

وكان أصحاب النبيِّ ﷺ الهداة الأخيار مع الصنف الأوَّل فكان القرآن قائدهم وهاديهم يتلونه آناء الليل وأطراف النهار وكانوا يعلمون قول العزيز الغفَّار القويِّ الجبَّار: ﴿أفلا يتدبَّرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا﴾[النساء: 82]، فوضعوا نصب العين والأذن والفؤاد أنَّ القرآن كلام ربِّهم إليهم، وأنَّه دستور حياتهم منه يصدرون وإليه يعودون، فكان القرآن بمنْزلة الهواء الذي يتنفَّسون، فيه راحة النفوس وقرة العيون، يلتقون فيما بينهم يتحدَّثون حديث الناس لكنَّهم عن القرآن لا يغفلون، يدعون أحدهم ليقرأ عليهم من كتاب ربِّهم يقولون: ذكِّرنا ربَّنا. لأنَّهم كانوا يقرؤون ويتدبَّرون ويفهمون قول ربِّهم: ﴿وإنَّه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون﴾[الزخرف: 44].

عباد الله! لأجل ذلك كان جيلهم خير جيل، فهموا القرآن وعملوا به واتَّبعوا السبيل فكان نصر الله حليفهم، وكان الله يحفظهم ويكلؤهم بعنايته وتسديده وتوفيقه، فكانوا لا تأخذهم في الله لومة لائم أو قولة مخاصم، إذا سمعوا نداء الله لهم لبَّوا النداء، وكان همُّهم أنفُسَهم ولم يكن همُّ أحدهم مَنْ لبَّى ومن تأخَّر وتخلَّف، نزعوا من قاموس لغتهم (سَوْفَ). بل كانوا يعملون بما يسمعون فدانت لهم الدنيا وملوكها بالسّمع والطّاعة، وهذا ليس من وحي القلم ولا من نسج الخيال، فلقد نهانا النبيُّ ﷺ عن قيل وقال.

من المُشاهد في هذه الأيَّام أنَّ الخطب والمواعظ والدروس كثيرة جدًّا -والقنوات الفضائيات تعجُّ بها البيوت- أكثر مما كانت عليه في الزمن الأوَّل، ولكن مع كثرة الدروس قلَّ العمل، فكثيرًا ما نسمع ولا نرى تطبيقا، وكثيرا ما نعلم ولا نرى عملا، وهذا هو الفارق بيننا وبين أصحاب رسول الله ﷺ، وتابعيهم من

أهل القرون المفضَّلة الأولى، حين كانت المواعظ والدروس والخطب قليلة، حتَّى قال قائلهم: «**كان رسول الله ﷺ يتخوَّلنا بالموعظة مخافة السآمة علينا**»[2].

فكان الوعظ الفينة بعد الفينة، والحين بعد الحين، كان الكلام قليلا لكنه دالٌّ على العمل، فكان العمل كثيرا.

عباد الله! ولعلّي أقف بكم عند بعض النماذج الروائع التي صنعت جيل محمَّد ﷺ، فكان جيلا فريدا علما وفهما وعملا، وأنَّهم كانوا والقرآنَ كفرسي رهان، كالعملة الواحد لها وجهان، فأقول مستعينا بالله الرحمن وعليه التكلان:

**النموذج الأوَّل:** ذكر المفسِّرون أنَّ رسول الله ﷺ لمَّا عزم على تحطيم الفوارق الطبقية بين الناس وإزالة الحواجز بين الفقراء والأغنياء وبين من كانوا سادة ومَنْ كانوا من قبل عبيدا ثمَّ منَّ الله عليهم فصاروا عتقاء أحرارا، عزم رسول الله ﷺ أنْ يبيّن للناس أنَّ الفقر والغنى ليسا معيارين للفضل وكذلك شرف النسبة ولون البشرة ليسا أيضا معيارا للتفاضل، إنما المعيار تقوى الله عزَّ وجل فقال صلَّى الله عليه وسلَّم: **((يا أيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا أحمر على أسود، ولا أسود على أحمر، إلا بالتقوى أبلغت))**[3]. كما قال الله تعالى: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾[الحجرات: 13].

فلمَّا أراد أن يغرس هذا المبدأ السامي والحسَّ العالي في نفوس أصحابه لم يفعله قولا بل أسَّس له فعلا وعملا، إذ العمل أنطق بلسان الحال من المقال، والقضية ليست سهلة، والنفوس جبلت على حبِّ الترفُّع وأنَّ من نشأ على شيء شاب عليه، فقام رسول الله ﷺ إلى زينب بنت جحش ابنة عمِّه، جدُّه وجدُّها واحد هو عبد المطَّلب، قام إليها يخطبها إلى مولاه زيد بن حارثة، فلمَّا ذكره لها قالت: ما أنا بناكحته، فقال ﷺ: بل **((تنكحينه))**، فبينما هي تحاور رسول الله ﷺ، إذ بالوحي ينْزل لفصل القضاء، بقوله تعالى: ﴿وما كان لمؤمن

ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيَرة من أمرِهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالا بعيدا﴾[الأحزاب: 36]. فما قرأها رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم على زينب حتَّى قالت: يا رسول الله أترضاه لي زوجا؟ قال: نعم. قالت: إذًا لا أعصي الله ورسوله، رضيت بما رضي به الله ورسوله فتزوَّجته، أرأيتم كيف غيَّر القرآن رأيها، ونزلت على أمر الله ورسوله ﷺ، لم توافق في أوَّل الأمر لأنَّها حسبت أنَّ الأمر عرض ومشورة، فلما نزل الوحي يخاطبها لم تعد القضيَّة قضيَّة زواج وخطبة، توافق أو لا توافق، بل عاد الأمر كما فهمت من الآية طاعة لله تعالى ورسوله ﷺ. وإلاَّ تكون قد عصت الله عزَّ وجل ورسوله ﷺ، وهي تسمع قول الحقّ سبحانه: ﴿ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالا مبينا﴾[الأحزاب:36].

## الخطبة الأولى:

عباد الله هكذا كانوا يتلقَّون الوحي عن الله جلَّ جلاله، أمَّا نحن -أهلَ هذا الزمان- فالأوامر والنواهي والزواجر تقرع آذاننا صباحا مساء وكأن لم نسمع شيئا لأننا لا ندرك معاني القرآن وشأن القرآن، والله تبارك وتعالى عظيم الشأن يخاطبنا ونتلو كتابه كلَّ آن، ﴿فذكِّر إن نفعت الذكرى سيذكّر من يخشى ويتجنَّبها الأشقى الذي يصلى النار الكبرى ثمَّ لا يموت فيها ولا يحيى﴾[الأعلى: 9 - 13].

إنَّ أصحاب رسول الله ﷺ لمَّا أسلموا وجوههم لله، وتأدَّبوا بآداب القرآن ملَّكهم الله الدنيا بأكملها كلِّها وفتحوا البلاد شرقها وغربها، ودخل الناس في دين الله أفواجا، ونحن لما صرنا نختار نفعل أو لا نفعل، صار حالنا كما هو ظاهر لكلِّ أحد والله الموعد وله الحمد من قبل ومن بعد.

أسأل الله تعالى أن يفتح لنا أبواب الخير كلَّها، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

---

## الهوامش

(1) أخرجه ابن حبان والبزار بإسناد صحيح.

(2) أخرجه البخاري ومسلم عن ابن مسعود.

(3) أخرجه أحمد بن حنبل في المسند والطبراني في المعجم الأوسط.